الدكتور
محمد بدر معبدي
الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد
جامعة الأزهر - فرع البنات

الصور الفنية
في
شعر صفي الدين الحلي

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الصـــــــور الفنيـــــة

في

شعر صفي الدين الحلي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لقد بلغت شهرة صفى الدين الحلى فى عصره شهرة لا تقل عن شهرة أبى الطيب المتنبى ، وبلغ من الحظوة والجـاه والمنزلة ما لم يبلغه شعراء عصره وأوتى من سـحر البيان وروائع المقـال وبلاغـة الكلمة وفرائد الشعر ما لم يبلغه شعراء عصره وبالرغم من أن هذا العصر كان من أسوأ عصور انحطـاط الفكـر والأدب مما أصـاب الفكـر والأدب بالجمـود والاسفاف نتيجة التقليد والاغراق فى الصناعة البديعية والتكلف فوق القدرة والاحتمال ، فان شـاعرنا الحلى كان من القلائل الذين كانوا وراء تلك المشاركة الأصيلة ، ذلك أن الظروف التى مر بها ساعدت الشاعر على دفع بذور العطاء نحو النمو والازدهار فمن يبقى أسير بلد ضيق مكتفيا بالكفاف من الغذاء والنمو الفكرى والاجتمـاعى ليس كمن يجوب آفاقا واسعة ، وبلادا مختلفـة مقربا من الوزراء والملوك ، والأعيان والوجهاء نازلا بين قصورهم مستمتعا ومتظللا بأفيائهم وشاعرنا صفى الدين من النوع الثانى فقد تجول فى معظم البلاد العربية والاسلامية فى عصره وحصل من جراء ذلك على ثقافة واسعة فى الأدب والسياسة والاجتماع ، اهلته فيما بعد لأن يهضم تجاربه ويفرز عصارتها لتخرج لنا ألوانا جديدة ، وصورا فنية فريدة والشاعر أو الأديب ابن بيئتـه يصـور ما يحس به ويترجم ما يعيشـه وشعر صفى الدين مختلف الألوان والصور وكل صورة شعرية تختلف عن الصورة الأخرى فهو مختلف الأنغام والألحان حسب طبيعة وجو البلد الذى يحل فيه • فصور شعره فى الحجاز تختلف عن صور شـعره فى العراق ، ومقطوعات الشام تختلف عن قصائد مصر وهكذا فى كل بقعة صورة فنية جديدة ، وانغام فريدة ، فكل قصيدة لها ملامحها الخاصة وسماتها المتميزة فشعره فى « ماردين » سجل للحوادث التى تحدث هناك من معارك وحروب ، الى حفلات ورحلات ، والى ذلك كله رأينا صـورا فنية كثيرة من ماردين

وطبيعتها الجميلة فحين خرج متنزها فى ضواحى ماردين أعجب بمناظرها الفتانة فوصف « عين الصفا » وعين « البرود » بشعر جميل يسجل الطبيعة الجميلة وشمسها القوية وأرضها الخضراء السندسية المطرزة بالأزهار الجميلة المختلفة الألوان والأشكال :

عجنا على وادى الصفا فصفا
عيش وولى الهم مرتحلا
جئنا بها والشمس فى « أسد »
قيظا فخلنا برجها « الحملا »
فى روضة حال الربيع لها
بسطا والبس دوحها حللا

وأما مناظر الشتاء فتجد فيها السماء ملبدة بالغيوم وتحس بالأمطار التى يتميز بها مناخ هذا الاقليم وترى الصور البيانية والبديعية ترقص أمامك ، فالأرض ينمق زهرها ما جرى من عيون ، وجداول ، والسحاب يظل يغدق عليها بفيضه الوسمى ووسمه المتدفق الى غير ذلك من الصور البديعة .

عين « البرود » برود عينى
ان عز منظر رأس عين[1]
فلو استطعت لزرتها
سعيا على رأسى وعينى
أرض ينمق زهرها
ما فاض من نهر وعين

---

(١) رأس العين : موضع الديوان ص ٥٥٧ دار صادر بيروت .

ويظــل يرفــدها الســحاب
بصــوب وســمى وعــين

فكــأن بهجــة وردهــا
شــمس تلاحظهــا بعــين

وكــأن نرجس روضــها
قــد صــيغ مــن ورق وعــين[١]

فلئن تبــاعد ربعهــا
والضــد يرصــدنى بعــين[٢]

لا أنثنى عنهــا ولا
ارضى بأثــر بعــد عــين[٣]

ويشبه صوب المزن بالعاشق الولهان الذى يتفانى فى سبيل البقاء بهذه الأرض الحبيبة التى ما زال يبكيها بوابل منه ، ويعــاتبها بقطراته المتدفقة حتى أن خدها تورد من الخجل يقول :

فكأن صــوب المزن يعشــقها
فأقــام لا يبغى بهــا حــولا

مــازال يبكيهــا ويعتبهــا
حتى تورم خــدها خجــلا

ويصــور لنا الهدوء والأمن الذى كان يخيم على ماردين والســلام والعدل الذى كان يسودها ، وكان أهلها يتنعمون به يقول فى ثنايا مدحه للملك المنصور :

---

(١) الورق : الفضة ، العين : الذهب المضروب .
(٢) العين : الجاسوس .
(٣) العين : حضور الشيء لشخصه .

ملك هذب اخـلاق الزمان عدله المسنون

وأعاد الناس فى ظل الأمان عضبه المسنون

مهد الأرضين بالعدل فكان أمنها مضمون

ذيبها والشاة ترعى فى مكان غدره مأمون

أو يقول مثل ذلك :

تجمع الأسـد فيهـا والظبـاء كمـا

من فـرط عـدلك يرعى الذئب والنقـد[1]

وقد فتن الشاعر بمصر ايما افتتان وراح يلهج بالثناء عليها فى ثنايا قصائده التى كان يمدح بها الملك الناصر وترى فيها صورا بديعه ، وألوانا بيانية آسره ، من صور الربيع التى خلعت على غصون البان حللا جميلة ، الى زهور مختلفة الأشكال والألوان ، وصور النيل بسفنه البديعة تتراقص مع الهواء الذى يصارع اشرعتها البيضـاء فى براعة وتفنن .

خـلع الربيـع على غصـون البـان

حـللا فواضـلها على الكثبـان

وتنوعت بسـط الرياض فزهرها

متبـاين الأشـكال والألـوان

واخضر واديهـا وحـدق زهـره

والنيـل فيـه ككـوثر بجنـان

وبه الجـوارى المنشـآت كأنهـا

اعـلام بيـد أو فـروع قنـان

---

(١) النقد صغار الغنم .

نهضـــت بأجنحـــه القـــلوع كانهـــا
عنـــد المســـير تهـــم بالطـــــيران

والمـــــاء يسرع فى التدفق كلمـــــا
عجـلت عليـه يـد النســـيم الوانى[١]

ويتغنى بالأهرام العظيمة ، ويشبهها بالشمس التى تشرق على الناس فتبدد غياهب الظلام ، كما يتغنى بجداول مصر ومياهها وجناتها يقول :

انى وقـد صـــفت الميـــاه وزخرفت
جنــــات مصر واشرق الهــــرمان

ويشبه سلطانها الناصر مرة بالغيث ومرة بالليث وتارة بالسيف وأحيانا بالسيل والبحر .

كالغيث يبعث من عطـــاه وابـــــلا
ســبطا ويرســل من ســـطاه حاصــبا

كالليث يحمى غــــــــــــابة بزئيره
طـــورا وينشـــب فى القنيص مخـــالبا

كالســـيف يبـــدى للنـــواظر منظـــرا
طلقـــا ويمضى فى الهيـــاج مضـــاربا

كالســـيل يحمـد منــه عـذبا واصـــلا
ويعـــده قـــوم عـــذابا واصـــبا

كالبحـــر يهـــدى للنفوس نفائســـا
منـــه ويبـــدى للعيـــون عجـــائبا

---

(١) الديوان ص ٩٩ .

فاذا نظـــرت ترى يديـــــه ورأيــــه

لم تلف الا صـــــائبا أو صـــــائبا[١]

ومعظم شعره الوصفى كما سنبين فى باب الوصف — من النوع الجيد الأصيل الذى يدل على براعة الشاعر فى النظم ، وعلى رقة متناهية وملاحظة رشيقة تتناول الأشياء بمنتهى اللطف والخفة فأجاد فى تصوير لعبة الشطرنج اجادة جعلتنـــا نندفع معه بحماس نرقب انتصـــاره على لاعبه ، وكأننا فى معركة رهيبة من معارك السيف والترس من فوق الأفراس ويقول أولها :

وغـــزال غازلتـــــه بعـــــد بين

الفت بينـــــه المـــــرام وبينى[٢]

ومن صوره الآسرة قوله يصف محبوبا :

شـــجى وشـــفى لما شـــدا وترنمـــا

فأنعس ايقـــــاظا وايقظ نومـــــا

أغن كأن العـــود ضـــم صـــدى له

يحاكيـــه فى ألفـــاظه أن تكلمـــــا

اذ ارتلت ألفـــاظه الشـــعر معـــربا

أعادت لنـــا أوتـــاره اللفظ معجمـــــا

له منطـــق يســـتنزل العصـــم عنـــدما

يحـــرك فى الأوتار كفـــا ومعصـــما

---

(١) الصائب الأول : الممطر ، والصائب الثانية : المصيب ، انظر الديوان ص ٩٧ .

(٢) الديوان ص ٤٧٧ .

يضـــم الى نهـــديه عـــودا تظنـــه
نســيما مجـــزا أو نعيمـــا مجســـما

كأن حشـــــــاه ضـــــم سرا مكتمـــا
يمـــــوه عنـــه أو حديثـــا مجمجما[١]

أو قوله :

فتن الأنـــــام بعـــــــوده وبشـــدوه
شــــــاد تجمعت المحاســــــن فيه

حتى كأن لســــــــــــانه بيمينـــه
أو أن مـــا بيمينـــه فى فيـــــــه

ذلك هو الشـــعر الصـــادق الجيد الذى ينبع من الذات ، من تأثيرها وانفعالها وتعاطفها مع المحسوسات الخارجية ، فلو لم يغص صفى الدين الى أعماق نفسه لما أتانا بهذه الصورة العجيبة ، فالعود يضم فى احشائه سرا يكتمه عن الآخرين ويسرى عنه .

ونلاحظ كما يلاحظ غـيرنا من النقاد ان صـفى الدين الحلى أبدع فى وصف الطبيعة وأتى بصور بديعة لم يسبق اليها فى بعض الأحيان ، وبذ فيها اقرانه ولداته كابن نباته المصرى وذلك كقوله فى قصيدته أسياف البرق .

ولم أنس لى فى ديـــر ســـهلان ليـــلة
بهـــا الســـحب تبكى والبوارق تضـــحك

وثـــوب الثرى بالزعفـــران معطـــر
وللريح ذيـــــل بالرياض ممســـــك

الى أن يقول :

---

(١) الديوان ٤٧٨ .

فيا حبـــذا فصـــل الخـــريف ومـــزنه
وســتر السـحاب الطـلق بالبرق تحبـــك

وللطـــــل فى الغـــــدران رقش منمنم
كان اديـــم المســـك صرح مشـــبك

وهذه الصورة ليست الا قلا من كثر من صوره الجميلة الرائعة المنتظمة فى ثنايا كل قصيدة أو مقطوعة

ومهما بالغ صــفى الدين الحلى فى محاكاته لشعـر الاوائل أو شــعراء عصره ، فانه لا يخلو من ومضات صافية تشــع من خلال صوره الشــعرية المتناثرة فى جوانب ديوانه ، وسوف نتحدث عن الصــور الشــعرية فى هذا البحث فى كل باب من ابواب شعره من مديح ، ونســيب ، وفخر وخمريات ورثاء ووصف وشــكوى وعتــاب وما اســتحدثه من فنــون أخــرى

وقد قسمت البحث الى مقدمة وتمهيد وثمانية فصول . ففى التمهيد تحدثت عن البيئة الطبيعية للشاعر ثم تحدثت فى كل فى فصل من الفصول الثمانية عن الصور الفنيــة المنساحة فى أغراض شــعره السابقة الذكر وأرجو ان اكون قد هديت الى الجادة والله من وراء القصد .

الدكتــور محمــد بــدر معبــدى
تحريرا فى العاشر من رمضان سنة ١٤٠٩هـ
١٦ من ابريل ١٩٨٩م
مدينــة نصر — القــاهرة

تمهيد

البيئة الطبيعية للشاعر

تمهيــــد

البيئـــة الطبيعيـــة للشـــاعر

هو عبد العزيز بن سرايا بن على بى أبى القاسم بن أحمد بن نصر بن عبد العزيز بن سرايا بن باقى بن عبد الله بن العريض الحلى الطـــائى السبنسى الشهير بصفى الدين الحلى أشهر مشاهير عصره ، وقد ولد فى ربيع الأول عام ٦٧٧هـ فى حلة بابل — أو الحلة الفيحاء — وهى حلة قريبة من الموصل وقدتغنىبها صفى الدين وترنم بذكرها شعرا فقال :

من لــم تر الحـــلة الفيحـــاء مقلتــــه
فانه فى انقضـــــاء العمــــر مغبـــون

أرض بهــا ســـائر الأهـــواء قد جمعت
كمــا يجمع فيهـــا الضـــب والنـــون

فالقـــدر طافحـــة والريح نافحـــة
والورق صـــادحة والظـل موضـــون[1]

ما شـــانهـا غـير ســـعى الجـاهلين بهـا
كأنهـــا جنـــــة فيها شــــياطين

والحلة قريبة من بغداد على بعد ٦٤ ميلا تقريبا وعلى بعد بضعة أميال من اطلال بابــل العظيمـــة ، وعلى موقع جميــل من نهر الفرات وتكتنفها بساتين النخيل الباسقة وأشجار الفاكهة الشهية وهى « مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد وكانت تسمى « الجامعين » وأول من عمرها « سيف الدولة

---

(١) موضون : كثير ، والورق الحمام جمع ورقاء .

صدقة الأسدى » سنة ٤٩٥هـ وكانت أجمـــة تأوى اليها السباع فنزل بها بأهله وعساكره وبنى بها المساكن الجميلة والدور الفاخرة[١] وقد فتن بها صفى الدين وملكت عليه شـــغاف قلبه ، فاذا بها طيف لا يبارح مخيلته ، ولا يفارق وجدانه ولم تكن الحلة بالنسبة للشاعر مسقط رأس ومسرح حياة رتيبه ومكانا للنشأة والحياة فحسب بل كانت المدرسة التى نهل منها علومه وثقافته وكانت المنتدى الذى يزاول فيه الأدب والشعر والفروسية حتى بذ الأقران وفاق الأحداث وضرب به المثل فى امتلاك ناصية الشعر والبيان حتى شهد بفضله العلماء ، وأشاد بذكره الأدباء .

١ — ومنهم صاحب مجالس المؤمنين يقول عنه اجتمعت سنة ٧٤٧ هـ بالأديب الشاعر صفى الدين بمدينة بغداد فرأيته شيخا كبيرا وله قدرة تامة على النظم والنثر وخبرة بعلوم العربية والشعر ، فقرضه أرق من سحر النسيم ، وأروق من المحيا الوسيم وكان شيعيا قحا ، ومن رأى صورته لا يظن أنه ينظم ذلك الشـــعر الذى هو كالدر فى الأصداف وأنا لا أوافق صاحب مجالس المؤمنين فى الحكم على الشـــاعر بصورته فالمرء بأصغريه قلبه ولسانه لا بأكبريه جسمه وطيلسانه ، فالجاحظ وهو أمير البيان كان قبيح الصورة وغيره كثير من اساطين الأدب والعلم الذين لم يتمتعوا بصورة جميلة .

٢ — ومنهم ابن شاكر الكتبى فى فوات الوفيات[٢] فقد نعته بالامام العلامة البليغ القدوة الناظم الناثر شاعر عصره على الاطلاق ، صفى الدين الحلى ، شاعر أصبح راجح الحلى دونه ناقصا وكان سابقا فعاد على كعبه ناكصا ، أجاد القصائد المطولة والمقاطيع ، وأتى بما أخجل زهر النجوم فى الســـماء كما أزرى بزهر الأرض فى الربيع ، تطربك الفاظه المصـــقولة ، ومعانيه المعسولة ومقاصده التى كأنها سهام راشقة وسيوف مسلولة .

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٢ ص ٣٢٢ .

(٢) جـ ١ ص ٢٧٩ .

٣ — ومنهم السيد اليمانى فى كتابه نسمة السحر الذى اثنى عليه بقوله « ابدع فى مديحـه وهجوه ورثائه وغزله وأوصـافه — وتشبيهاته وحماسته وحكمته وأمثاله »[١] .

وكان من كبار الامامية عالما بالأدب وله فضل السبق الى نظم البديع فى مدح الرسول ﷺ وقد تبعه الحموى والموصلى والأندلسى وغيرهم .

وقد ترجم له غير ذلك مشـاهير الكتاب كصـاحب رياض العلماء[٢] والعجب من صاحب الرياض ومن تبعه كيف يقول بأنه تلميذ المحقق مع العلم بان المحقق توفى سنة ٦٧٦ هـ وولادة صفى الدين سنة ٦٧٧ هـ كما ترجم له الشيخ على كاشف الغطاء فى كتابه الحصون المنيعة[٣] والسيد محمد باقر فى روضات الجنات ج ٣ صفحة ٤٢٢ وابن حجر فى كتابه الدرر الكامنة ج ٢ صفحة ٣٦٨

وخير الدين الزركلى فى كتابه الاعلام ج ٢ صفحة ٢٢٥ وجرجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٣ صفحة ١٢٨ والشيخ عبد المحسن الامين فى كتابه الغدير جـ ٦ صفحة ٣٩ واخرون كثيرون مما يدل على علو كعبه فى الشعر والادب .

ومما يجدر قوله عن نشأة الشاعر وصباه ما تلقنه فى هذه المرحلة من العلوم ، وما فطر عليه من الشعر وسبك القريض كل ذلك قبل ان يشب عن الطوق ويعلم ما دواعى الشوق مع كرهه لصناعة التكسب بالشعر والتقرب من الأدنياء وفرارة من العادة الخشناء ولو من الغادة الحسناء وهذا يدل على أن طفولتـه اكتسـبت الرهافة — والأحاسيس الشـاعرة ، فنمت عنده الأنفه وأدب منذ صباه على الدرس والتحصيل ، سلاحه ذهن صاف وقريحة متقدة ونفس تواقة الى العلا بعيدا عن شوائب الزلفى والمالاة .

---

(١) جـ ٢ صفحة ٩٣ .
(٢) رياض العلماء جـ ٤ ص ١٢٨ .
(٣) جـ ٢ ص ٣٥٣ .

وقد نشـأ في مدينة الفيحاء الزاهرة ، وفي جـوها العربي الصرف ، وطبيعتها الساحرة ، وبين أهلها الكرام الأعزاء ترعرع ، وكانت نشأته نشأة مترفه لأنه ابن قوم هم أكثر أعيان الحلة فربوه تربية ترف ونعيم ، وكانت حياته حياة هناء وهدوء بال وطمأنينة نفس ، كما كان محبوبا بين الناس عزيزا بين أقرانه ، وكثر خلانه وأصدقاؤه حتى غدا ذلك أمرا طبيعيا فقال :

ومن يك مثـلي كامـل النفس يغتـدي
قليـلا أعـاديه كثير المصـاحب

وكان يلهو مع أقرانه لهو أولاد الأشراف فكان يخرج معهم الى الصيد ليمتع نفسه بنزهة بريئة أو رحلة مسلية[1] ! .

فقـم فقـدتم لنـا طيب الهنـا
والدهـر قـد من علينـا بالمنى

والعيش قـد رقت حواشـيه لنـا
ومسـعدي شرح الشـباب والمنى

فهو غني موفور الغنى ، شاب مملوء حيوية وصحة ، فلم لا يلهو هذا اللهو ولم لا يسري عن نفسه ؟ والى ذلك كله فهو يعود نفسه بهذه الرحلات على شظف العيش وخشـونة الحياة ، ليصـبح رجلا يمكنه أن يعتمد على نفسه حين تقسو الظروف ، وليتدرب على مبادىء تنفعه عند خوض المعامع ، لأن عصره يتطلب من الرجل أن يكون هكذا وأكثر لما اصطبغ به من الفتن فيركب الخيل ، ويقاتل بالسيف ويكابد مشاق الحرب ويشارك فيها قومه ويعيش بين القلاقل والاضطرابات[2] ، وقد أجبرته هذه الظروف أن يتعلم

---

(١) انظر شعراء الحلة ج ٣ ص ٢٧٠ — ٢٧٣ ، المطبعـة الحيدرية بالنجف ١٩٥٢ .

(٢) شعر صفي الدين الحلي ، مطبعة المعارف صفحة ٤٨٠ ، ١٩٥٩ بغـداد .

الفروسية وان يصبر على شدائد الحوادث ، ويجد فى الملمات لذة ومتعه ، وان يحبب اليه اجتياز الفلاة وسلوك القفار مادام ذلك يوصله الى المجد ، على أن تلك الفتن ما لبثت ان حملته على الرحيل الى آل ارتق ملوك ديار بكر بن وائل فمدح الملك المنصور نجم الدين أبا الفتح غازى بتسع وعشرين قصيدة كل منها تسعة وعشرون بيتا بدأ كل بيت منها به ، وبه ختمها ، وسماها « درر النحور فى مدائح الملك المنصور » وسميت أيضا بالروضة وهى المعروفة بالارتقيات وهذا يدل على مقدرته اللغوية وخصب شاعريته وغناها بالصور الفنية ، ثم اتصل بالسلطان المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الملك الأفضل أيوب فمدحه ثم بابنه شمس الدين ابى المكارم ، ولما اشتدت الفتن ورث حبل الأمن رحل الى مصر ، فقربه سلطانها الملك الناصر فمدحه بعدة قصائد دعاها بالمنصوريات ، على انه فى مدحه هذا لم يتبذل فيه كما يتبذل سائر شعراء التكسب والمدح بل كان فيه محافظا على كرامته كما يتحدث ذلك عن نفسه ويقول :

« وكنت عاهدت نفسى ألا امدح كريما وان جل ولا أهجو لئيما وان ذل ، وذلك للتنزه عن التشبه بذوى السؤال ، والترفع عن التتبع لمسالب الرجال فكنت لا أنظم شعرا الا فيما يوجب لى ذكرا أو يجلب لى شكرا

كوصف حرب ورصف شرب ولطف عتب لقلب قلب

وذكر الف وشكر عرف ومكر وصف وندب ندب[1]

ولا أتصدى من المدائح الا لما أعده زادا للمآل فى مديح النبى والآل ، ثم اذا عن لى معنى لا يليق الا بالثناء والمدح نظمته فى كبراء أنسابى ، وما لا يسوغ الا فى الهجاء والقدح عزوته الى اقتراح خلعاء أصحابى لئلا يظن قوم أن فرارى فيهما

---

(١) شرب : جمع شارب ، قلب القلب : تغيره عما هو عليه ، والعرف : المعروف ، ندبه الى الأمر : دعاه اليه ، الندب : السريع الى الفضائل .

لعجزى عنهما ، وها أنا نصب المسألة طول حياتى ، ومطلق عرضى لمن تحققه منى بعـــد وفاتى[1] .

وأعرضــت عن مـــدح الأنام ترفعــــا
ســـوى معشرى اذ كان مجـــدى منهم
وقلت لقـــول ابن الحســـين مـــوريا
اذا كان مـــدح فالنســـيب المقـــدم

فلم يكن صفى الدين مداحا متجولا يعرض شعره على أبواب الملوك والعظماء لقاء عطاء كما كان معاصره الجمال بن نباته المصرى بل كان له من مجادة عنصره وكرامة نفسه وحرصـــه على سلامة شعره ، ما يقف سدا قويا دون هذا التكسب .

ويرى الأستاذ محمود رزق سليم أن الأيام كانت أقوى من ارادته وأقسى من كبريائه فدفعتـــه دفعا الى الاحتراف بشـــعره والخروج عن دســـتوره[2] .

غير أنا لا نوافق الأستاذ رزق سليم فالواقع أن شاعرنا صفى الدين الحلى لم يخرج عن دستوره الذى رسمه لنفسه وأن مدائحه التى قالها لم تخرج أو تتجاوز هذا الدستور فهى كما قال فى مقدمة ديوانه :

وذكـــــر ألف وشـــكر عـــرف
وبكـــر وصـــــف ونـــدب نـــدب

لم تتعد هذا الاطار فقد كانت للشكر أو رد الجميل « ومن لا يشـــكر الناس لا يشكر الله » .

وفى الحديث القدسى « عبدى لم تشكرنى اذا لم تشكر من اجريت

---

(١) شعر صفى الدين الحلى مطبعة المعارف ص ٤٧ بغداد ١٩٥٩ .
(٢) محمود سليم ص ٢٢ نوابـــع الفكر العـــربى صفى الدين الحلى دار المعارف ١٩٦٠ .

النعمة على يديه » ومن المعروف من سـيرة الشـاعر أن ملوك بنى أرتق اكرموا وفادته وأجزلوا له العطاء لدرجة أنهم رتبوا له معاشا شهريا مستمرا وعدوه واحدا منهم وامام هذه الأيادى البيضاء والصـنائع العظيمة كان لزاما على الشاعر ان يرد لهم الجميل « واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منهـا أو ردوها »[1] .

وقد جمع فى شعره صورا فنية وبديعية كما قدمنا ولا بدع فى ذلك فتلك ميـزة عصره وقد نظم قصيدة من بحر البسيط عددا أبياتها مائة وخمسة وأربعون بيتا سماها « الكافية البديعية فى المدائح النبوية» جمع فيها أنواع المحسنات اللفظية والمعنوية وبها فتح باب طريق نظم البديعيات ويستغنى بها حافظها عن الرجوع الى كتب البديع،ولعله أول شاعر من شعراء عصره تفنن فى أوزان الشعر فنظم موشحات منها ما اتبع فيه ومنها ما ابتدعه فجاء بشىء جديد فى تلك الأيام التى سادها التقليد ، وله قصيدة ظريفة تدل على نفوره من الألفـاظ الغريبة التى يمجهـا الذوق وتنفر منها النفس وكان مولعـا بتسميط قصائد الاقدمين ، كما اشتهر بوصفه لمجـالس الأنس واللهو ، وبوصف مظاهر الطبيعة وله زهرية جميلة مشهورة مطلعها :

ورد الربيـــــع فمرحبـــــا بـــوروده
وبنــــور بهجتـــــه ونـــور وروده

ولم يترك فنـا من فنون الشـعر الا قال فيه ، ومهمـا يكن الأمر فصفى الدين اشعر شعراء عصر الانحطاط ، وقبس متقد فيهم ، وشعره قوى السبك رائق الديباجة جميل الصورة البيانية لم ينحط فيه الى العامى والمبتذل شـأن شـعراء ذلك العصر .

١ — من هؤلاء القلائل الذين أبدعوا وتركوا صورا شعرية رائعة وألوانا فنية أصيلة غير متكلفة ومن تظهر فيها الاصالة فى طبيعة الشعور

---

(١) سورة النساء : آية ٨٦ .

ومرحه المنعكس على الشـــعر الشـــاعر المصرى المعـــروف بالجـــزار[١] وقد اشتهر بخفة روح وبديهة وحلاوة نكتة فقد كانت له دار خربة متداعية فبدلا من أن يبكيها ويرثيها راح يتفكه فى تصويرها ومداعبتها :

ودار خراب بهـــــا قـــد نزلت
كأنى نزلت الى الســـــــــــــابعة

فلا فـــــــرق ما بين انى أكـــــــون
بهـــا أو أكـــون عــلى القـــارعة

تساورها هفوات النسيم فتصغى بـــلا أذن واعية
وأخشى بها أن اقيم الصلاة فتسجد حيطانها الراكعة

اذا مـــا قـــــــــرأت اذا زلزلت
خشـــيت بأن تقـــرأ الواقعـــــة[٢]

لكن صفى الدين كما قدمنا يتميز بروحه المرحة وبراعته فى تصوير الصور الفنية الرائعة حتى ليخيل اليك ان كل قصيدة من قصـــائده تمثل لوحة فنية فريدة وهذا هو الفرق بينـــه وبين شـــعراء عصره .

---

(١) النجوم الزاهرة ابن حجر العسقلانى ٣٤٥/٧ .
(٢) ابن حجة الحموى : خزانة الادب ٢٥١ .

الفصل الأول

الحماســـة

الفصـــل الأول

الحماســة

اهتم شـاعرنا صفى الدين الحـلى بهذا الباب ولذا قدمه فى ديوانه على سائر الأبواب ويرجع اهتمامه به الى ان هذا الباب يمثل شـخصيته أروع تمثيل ، ويصور نشأته وسيرته أجمل تصوير وأصدقه •

ويراد بشعر الحماسة كل ما يتحدث عن الاقدام والشجاعة ، والتفانى فى حب الوطن والدفاع عن بيضته • وقد ولع الحلى بشعر الحماسـة منذ نعومه أظفاره فحفظ اشعار الحماسة للبحترى وأبى تمام واهتم بحماسة المتنبى فوعاها واستظهرها وكان يرى فيه شخصه ويتمثل بشعره ويعارضه فى بعض قصائده كقصيدته التى أولها :

أسـبلن من فـوق النهـود ذوائبـا
فجعـلن حبـات القـلوب ذوائبـا[1]

ويعد صفى الدين فى مقدمة شعراء الفخر والحماسة ولعل الذى أهله لذلك كما يقول الاستاذ محمود رزق الظروف التى لازمت أسرته فقد كان لصفى الدين أعمام وأخوال ذوو مكانة فى الحلة ومنهم الصدر جلال الدين بن محاسن وهو أكبر اخواله ومنهم صفى الدين بن محاسن اخوه وبنو محاسن فرع من سنبس أيضا الذى يقول فيـه :

فكيف ولم ينسـب زعيـم لسبنس
الى المجـد الا كان خـالى أو عمى

---

(١) الديوان : ٩٥ •

وقد كانت هناك حقود وشحناء بين بنى محاسن وآل ابى الفضل بسبب التنازع على الرياسة والامارة بالحلة ، فلما انتشرت الفوضى فى بلاد العراق على أثر الخلاف الناشب بين آل هولاكو على ممالكهم فى عهد السلطان غازان اضطرب الأمن فى الحـلة ووقع النزاع بين قبائلها وأدت الاحقـاد بين بنى محاسن وآل أبى الفضل الى أن يغدر آل أبى الفضل بصفى الدين بن محاسن ويقتلوه غيلة فى المسـجد فرثاه صفى الدين رثاء حارا وثارت لمقتله ثائرة قومه ، ونزع بهم عرف الوراثة الى الانتقام والأخذ بالثأر وكان فى طليعتهم صفى الدين الحلى الذى كان متحمسا تحمسا شديدا وذلك لمكانته من الشباب والشعر فنظم القصائد الملتهبة يشعل بها النار ويستحث قومه على القتال والايقاع بالعدو وأهاب بخاله جلال الدين أن ينتقم لأخيه أشد الانتقام ، وقد جدت الحروب بينهم بسبب هذا ولبثت المطاحنات بينهم مدة طويلة حتى استطاع قومه أن يثخنوا فيهم ، وينتقموا منهم وكان صفى الدين فى طليعة المقاتلين فأبدى شجاعة وبسالة كانت من دواعى فخره وذلك فى وقعة زوراء العـراق[1] .

وتمتاز حماسة صفى الدين بالقوة والعنف وصدق العاطفة فيها ، فهو يعبر عن شعوره المختلج فى صدره أصدق تعبير ، ويصور عاطفته الجياشة فى قلبه أعظم تصوير ، لا يكذب ولا يدعى لأنه بطل حقا ، ولأنه أبدى من ضروب الشجاعة والبسالة ما يدعو الى الفخر والاعجاب فلا عجب أن رأينا شعره الحماسى يصور جوانب كثيرة من حياته ويؤرخ صفحات من تاريخه لأنه البطل الذى دخل المعارك وخبرها ، وخاض غمرات الحروب فوصفها وعبر عما مر به من أحداث فاذا وصف المعركة لم تفته لمحة من لمحاتها ولم يعجز عن متابعة فرسانها وحركاتهم ، وابطالها وضرباتهم .

صرمت شـمل المـارقين بصـارم
تبـديه مسـلوبا فيرجـع سـالبا

---

(١) محمود رزق سليم : صفحة ٢٢ .

صـــاف الفرند حكى صـــاجا جـــامدا
أبدى النجيـــع به شـــعاعا ذائبـــــا

وكتيبـــة تذر الصـــهيل رواعـــــدا
والبيض برقـــا والعجـــاج ســـحائبا

حتى اذا ريـــح البـــلاد حـدت لهـــا
مطـــرت فكان الوبـــل نبـــلا صـــائبا

بذوائب ملـــــد يخـــلن أراقمـــــا
وشـــوائل جـــرد يخـــلن عقـاربا[1]

تطـــأ الصـــدور من الصـــدور كأنمـــا
تعتـــاض من وطء التراب ترائبـــــا

والسيوف تلمـع والنبـال تتراشق ، وكل شيء يصطرع ، ولا نســمع الا صليل السيوف وتكسر النصال وتساقط الرؤوس ٠

فـلم يســمعوا الا صــليل مهنــدى
وصـــوت زئـــيرى بين قعقعة اللجـــم

جعلتهم نهبـــا لســـــيفى ومقـــولى
فهـــم فى وبـــال من كـــلامى ومن كلمى

وما أجمل تشبيهه فى هذا البيت :

وعضـــب كأن المـــوت عاهـــد حـــده
وصـــال فأفنى جـــرمه كل ذى جـــرم

---

(١) الشوائل : الخيول التى ترفع اذنابها الديوان صفحة ٩٧ وانظر : علوش ١٦٢ ٠

وصفى الدين بارع متفنن فى هذا الباب اذ يلجأ فى تحريضه على الجهاد والاستبسال الى ابتكار صور فريدة يتفنن فى عرضها بوصفها وسيلة من أجمل وسائل الترغيب فى الحرب والمقاتلة .

ففى قصيدته التى يحرض فيها السلطان الملك المنصور نجم الدين غازى بن ارتق صاحب « ماردين » على حضور حصار قلعة اربل سنة ٧٠٢ يلجأ الشاعر الى مقارنة صورية بديعة بين ظهور السيف ولمعانه وبين ظهور المقاتل الى ساحة القتال ، وبين انعدام فاعلية الأسد اذا احتجب فى غابة ، والنجم الذى لا يظهر له ضوء الا اذا أسفر عن حجابه ولا يعدم فى هذه الصور مقدرة فائقة على التخيل والتشبيه وصوغ الألفاظ الشعرية العذبة ، والقصيدة فيها حشد من الصور البيانية المشرقة يقول :

أبـد سـنا وجهـك من حجـابه
فالسـيف لا يقطـع فى قـرابه

والليث لا يرهب من زئـيره
اذا اغتـدى محتجبـا بغـابه

والنجـم لا يهـدى السـبيل سـاريا
الا اذا أسـفر من حجـابه

والشـهد لولا أن يذاق طعمـه
لمـا غـدا مميزا عـن صـابه

اذا بـدا نـورك لا يصـده
تزاحـم الموكب فى ارتكـابه

ولا يضر البـدر وهـو مشرق
أن رفيـق الغيـم من نقـابه

من كانت السـمر اللـدان رسـله

كان بلـوغ النصر مـن جـوابه[1]

ويصور حركة الخيل وهى سائرة الى حلبة الميدان كأنها السيل الجارف ، كما يصور الكماة بالجبال الراوئح ، والسيوف بعاصفات الريح التى صهرت الأعداء مثل قوم عاد ولعله يشير الى الآية الكريمـة « فترى القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية » فاكتسب هذا المعنى من القرآن الكريم يقول مصورا ذلك :

فسرينا اليـه فى أجم السمر بغاب يسير بالآسـاد

وأتينا من الخيول بسيل سال فوق الهضاب قبل الوهاد

وبرزنا من الكمـاة باطواد حلوم تسرى على أطواد

كلمـا حـاولوا الهـوادة منـا

شـاهدوا الخيـل مشرفات الهـوادى

وأخـذنا حقـوقنا بسـيوف

عنيـت بالدمـا عن الأغمـاد

فكـأن السـيوف عاصـف ريح

وهـم فى هبـوبها ـ قـوم عـاد

ويبدو أن الحركة الخاطفة من أهم ما يميز الصـورة الحماسـية عند صفى الدين الحلى فالجند تتدافع ، والخيل تجرى والسيوف تخطف الأبصار

---

(١) الديوان : صفحة ٦٠ .

والنبال كأنها المطر ، والصـفى كثيرا ما يلجأ فى حماسـته الى المبالغة فى التصوير والمغالاة فى تجسيم الصورة ، وكل ذلك ليعطيك صورة صادقة عن قومه فى شجاعتهم وفدائيتهم وتصميمهم على انتزاع النصر ولعله يهدف من وراء ذلك الى اظهار قوته وبأسه من خلال امته ليقفنا على بلائه وتفانيه فى حومه الوغى ، فيقدم لنا صورة فريدة من البـلاء والتضحية تبدو فيها روعة وصليل السيوف ، وقعقعة الرماح وهذا ما نراه فى معظم حماسته وفخره ويتجلى ذلك فى قصيدته :

ســلى الرماح العـوالى عن عوالينـا
واســتشهدى البيض هل خـاب الرجـا فينا

ثــم انثنينـا وقـد ظلت صـوارمنا
تميس عجبـا ويهتز القنالينـــا

وللدمـاء عـلى أثوابنـا عـلق
بنشره عن عبير المســك يغنينـا

فنراه حينمـا يتغنى بمآثر قومه ويشـيد بهم يتحدث بلهجة الواثق المطمئن الى قوة قومه فيأتيك بما يشبه لحن النصر ونشوته بلغة سـهلة زائفة لا تعروها كلفة أو تعقيد وتعيش معك ساعات الوغى وميادين النضال فترى اضطرام نارها وجندلة فرسانها وجيادها ، ولا ينسى فى غمار ذلك أن يحدثك عن قومه وجميل شـمائلهم وغظيم صـنائعهم معانقا آفاقا رحبة فى شعر ملحمى بديع وهو يعارض بقصيدته هذه عمرو بن كلثوم فى معلقته التى أنشدها اثر قتله عمرو بن هند ملك المناذرة بعد ان حاول اهانته واهانة أمه وأولها :

ألا هبى بصـحنك فاصـبحينا
ولا تبقى خمـور الا ندرينـا

أبا هنـــد فلا تعجـــــل علينـــــا
وأنظـــــرنا نخبـــرك اليقينـــــا

ولا ينسى حينما يخاطب أو يتحدث عن أعدائه ان يهزأ بهم ويسخر بعجزهم معظما من أمر قومه وأسلوب المقابلة هذا عنى به كثير من الشعراء قبله لكنه عند الحلى يتخذ طابعا طبيعيا لا تكلف فيه كقوله مستخفا بأعدائه :

ان الزرازير لمـا قـــام قائمهـــــا
توهمت أنهـــا صـــارت شـــواهينا

ظنت تأنى البـزاة الشـــهب عن جـــزع
ومـــا درت انه قـــد كان تهوينـــا

واذا تصـــدى لوصـف أعدائه وفعالهم ، فانه يصـــور ذلك بصـــدق وبساطة دون أن تشعر انه يريد تحقيرهم والنيل من مقامهم كل ما يبتغيه هو اظهار ضعفهم أمام قوة قومه وجبروتهم وحكمتهم وعدالتهم :

ذلوا بأســـيافنا طـــول الزمـــان فمذ
تحكمـــوا أظهـروا أحقـــادهم فينـــا

اخلوا المســـاجد من أشـــياخنا وبغـوا
حتى حملنـــا فأخلينـــا الدواوينـــا

والصفى يبلغ منتهى العفة والاخلاص والمكابرة ، حينما يفصل عادات قومه وصـــنائعهم ويجعلهم منصفين للنـــاس لا يبدأون بالغزو والاعتداء أو يؤذون أحدا الا بعد سابقة أو مهانة :

انا لقـــــوم أبت اخلاقنـــــا شرفا
ان نبتـــدى بالأذى من ليس يؤذينـــا

بيض صـــنائعنا ، ســـود وقائعنـــا
خضر مرابعنـــا ، حمـــر مواضـــينا
عزائـــم كالنجـــوم الشـــهب ثاقبـــة
ما زال يحـــرق منهن الشـــياطينا[1]

ويلاحظ بعض النقاد[2] أن الحلي في حماسته وفي غيرها من فنون شعره متأثر بالمتنبي الى حد بعيد ويدلل على ذلك بأن صفي الدين عارض كثيرا من قصائد المتنبي وضمن معارضات كثيرا من أبياته ، ويقتبس من معانيه ويستعين بصوره ويتشبه به في كثير من الأمور ، ولا عجب أن يفعل الصفي ذلك فان المصادفات جعلت هنالك تشابها كبيرا بين الصفي والمتنبي في الحياة والتربية والنشأة والظروف ، فقد ولد هذان الشاعران في العراق في بلدين شيعيين ، كل منهما له نهضة أدبية وعلمية وترك كل من الشاعرين العراق في شبابه ، وعاش كل منهما في كنف دولة اسلامية قوية ، المتنبي عند الحمدانيين والصفي عند الأرتقيين وجال كل منهما البلاد العربية ووصل الى مصر فقد وفد المتنبي على كافور ومدحه ووفد الصفي على الملك الناصر ومدحه أيضا وعاد كلاهما فيما بعد الى العراق ، ولا يخفى ان كلا من الشـاعرين كان يشترك في الحروب ويدخل المعارك فيصف القتال وصفا واقعيا حيا يعتمد على شيء محسوس ملموس قد انتزع كل منهما صور الوصف من التجربة العملية والواقع الملموس ، لذلك كان شعرهما ما يكاد تلتقطه الأسماع حتى تهتز القلوب وتندفع النفوس متحمســة الى القتال متعطشــة الى الطعان والضراب ، فهو يسري فيها سريا ن السحر ، والصفي يقتبس الكثير من أبيات المتنبي ويضمنها شعره مثل :

فاذا ما افتخرت بالشـــعر قالـــوا
(لا افتخـــار الا لمن لا يضـــام)

---

(١) الديوان : ٢٢
(٢) انظر علوش : ص ١١٥ .

فالشطرة الثانية من هذا البيت للمتنبى وقوله أيضا :

وانظر لقول (ابن الحسين) وقد رأى
حبالا يشق على الأبى ويعظم

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم

أو قوله أيضا :

وقفت لها والمرهفات ضواحك
وجوه الردى مابينهن كوالح

ووجهك وضاح وعضبك ناضح
وزندك قداح وعزمك قادح

وقد أخذ ذلك من قول المتنبى :

وقفت وما فى الموت شك لواقف
كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الابطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح وثغرك باسم

ولكنى لا أوافق هؤلاء النقاد فى كل ما أبدوه فالصفى الحلى لم يتأثر بالمتنبى فى كل شعره بل تأثر به فى قصائد معدودة والا لو تأثر به الى هد بعيد كمايقول الناقد لأصبح نسخة من المتنبى ولا احد يقول ذلك فالصفى له طابعه الخاص فى شعره وتبدو أو تغلب على ملامح شعره الوداعة والمرح والظرف وتميز برشاقة الأسلوب وافتن فى الصنعة ما شاء وابتدع فى الموشحات واخترع فى الشعر أنواعا منها الموشح المضمن وغير ذلك[1] .

---

(١) تاريخ الأدب العربى : احمد حسن الزيات ، دار نهضة مصر صفحة ٤٠٥ ، ١٩٧٧ .

أما المتنبى فاسلوبه له طـابع خاص فقد جمع بين الشـعر والفلسفة وجعل أكثر عنايته بالمعنى لا اللفظ بخلاف الصفى وشتان بين الشاعرين فقد ركز صفى الدين على اللفظ واهتم بطلاوة الأسلوب والتفنن فيه على أن هناك فروقا أخرى بين حماسة الصفى ، وحماسة المتنبى فالصفى فى حماسته مسلم يتحدث عن عاطفة اسـلامية وفكر يسوده التشيع وحب آل البيت يمدح حماة الاسلام ، ويدافع عن الفكرة الاسلامية ، بينما المتنبى يتعصب لعروبته ونجد فى شعره فتوة عربية اجتماعية ويشيع فى وصفه نزعة قوية مضطربة كأنها الكهرباء[1] .

ذلك لأن المتنبى عاش فى ظل دولة عربية وفى بلاط ملك عربى فى حين ان الصفى عاش فى ظل دولة تركية اسلامية هى دولة الارتقيين وفى بلاط ملك تركى هو (المنصور نجم الدين غازى) فلا يعقل فى هذه الحالة أن يظهر الصـفى تعصـبه للعروبة وفخره بالعرب وهو يعيش فى ظل كنف ملك غير عـربى .

فالصبغة العربية تتجلى قوية عالية فى شعر المتنبى بسماتها وملامحها بينما الصبغة الاسلامية تتأجج عاطفتها ويكاد أن يرى ملامحها فى كل بيت من قصائد صفى الدين ولاسيما فى المدائح النبوية على أن افتخاره بالشعر لم يكن من عيار فخر المتنبى بشعره الذى وصل من جرائه الى كبريائه المريضة بل جعله دون فخره بنفسه وقومه ، والظاهر ان صفى الدين الحلى لم يكن يرتاح للمتباهين بشعرهم ، فعرض بالبحترى وأشاح عنه بوجهه لأنه اختال مع اشعاره اختيال بناة ذات الاعماد :

انمـا مفخـري بنفسى وقـومى
وقنـاتى وصـارمى وجـوادي

ويقول :

---

(١) مع المتنبى — الدكتور طه حسين جـ ٢ ص ٣٣٢ .

وأكسبني قومي وأعيان معشري
حفاظ المعالي وابتذال الرغائب

سراة يقر الحاسدون بفضلهم
كرام السجايا والعلا والمناصب

اذا جالسوا كانوا صدور مجالس
وان ركبوا كانوا صدور مراكب

اسود تعالت بالقنا عن عرينها
وبالبيض عن انيابها والمخالب

الفصل الثاني

« المديـــــح »

الفصـــل الثـــانى
« المديـــــح »

فطر الله صفى الدين على الاعتزاز بشخصيته واكرام نفسه والمحافظة على هيبته وكرامته فآلى على نفسه منذ نعومة أظفاره ألا يمدح عظيما ولا يثنى على كريم كما قال ذلك فى مقدمة ديوانه ولكن بنى ارتق كما بينا أغدقوا عليه اغداقا كبيرا وقدموه وأوسعوا له وافسحوا من مجالسهم واعتبروه واحدا منهم واعتمدوا له معاشا شهريا فكان لزاما عليه أن يقابل الاحسان بالشكر وأن يتقيد بمعروفهم وسماحتهم وقديما قال الشاعر :

وقيـــدت نفسى فى ذراك محبـــة
ومن وجـــد الاحســـان قيـدا تقيـــدا

وأمام هـذه الأيادى البيضاء والصنائع العظيمة[1] صاغ لبنى ارتق الدرر الغوالى يصور فيها الاخلاق الحميدة لهم وما اشتهروا به من سماحة وكرم دون تكلف أو تصنع ، وحينما تسمعه وهو فى مدحه اياهم كأنك تسمع قصيدة من « الشعر الوطنى أو الحماسى » ففيها يثنى على أبطال أشاوس دافعوا عن الوطن وحموا العرين ، وردوا أعداءهم مدحورين مهزومين فكل قصيدة لا تخرج عن تسجيل الصفات الحميدة والفضائل الانسانية • والمكارم العربية الأصيلة ففيها كرم حاتم الطائى ووفاء السموأل بن عاديا وحكمة لقمان وشجاعة خالد بن الوليد وكرماء العرب •

يا آل ارتق : لـــولا فيض جـــودكم
لدام خـــرق المعـــالى غـــير مرتتق

---

(١) انظر ديوان المتنبى : ص ٣٨٩ • دار العلم ببيروت ط ثانية •

لقد دفعتم باسداء الجميل لكم
ذكر اذا قبض الله الأنام بقى

لا زال يهمى علينا فيض نائلكم
بوابل من سحاب الجود مندفق[١]

ونراه يمدح الملك المنصور الأرتقى ، فيضفى عليه جملة أوصاف ومعان أجاد بها كما لو كان أجادها لنفسه ، وكأنه يسبغ هذه الصفات على نفسه ، فهو جواد الفه الجود حتى لم يعد يمكنه التخلى عنه ، وأضاء ليالى الناس بمكرماته فاذا الأيام زاهية ممراحة مختالة بما نالها منه كأغصان البان التى كساها الورق بعد طول عرى ، وهو محارب قديم تذكره الأيام وتهواه الحروب ولا يسعها الا الحنين اليه كلما ذكر أمامها ، فالجود جزء من أياديه وأنامله ، وقد بالغ فى بعض أبيات هذه القصيدة فادعى انه لولا هذا المليك لما فتحت أبواب الرزق وتلك مبالغة غير مقبولة من الشاعر — يقول :

ملك غدا الجود جزءا من أنامله
فلو تكلف ترك الجود لم يطق

أعاد ليل الورى صبحا وكم ركضت
جياده فأرتنا الصبح كالغسق

لولا أبو الفتح نجم الدين ما فتحت
أبواب رزق عليها اللوم كالغلق

تهوى الحروب مواضيه فان ذكرت
جفت فلم تر منها غير مندلق[٢]

---

(١) الديوان : ١١٠ .
(٢) الديوان : ١٠٨ .

والصفى حساس جدا ويستعبده الاحسان ويسـترقه المعروف ، بل وتأسره الصفات الانسانية أنى كانت فى مليك أو وزير أو صديق أو رفيق ، وقد جعلته هذه الصفات أن يكون مخلصا للجميع ، مادحا لمن يؤدى له عملا كبر أو صغر فهو لا ينسى ذلك ويردده ويحاول أن يرد الجميل بأكثر منه ، وتلك طبائع الكرماء ، وأخلاق النجباء ، فالملك المنصور صاحب «ماردين» الذى آواه ، كان عنده بمنزلة العين والفؤاد ، وقد ظل يحفظ جميله طوال حياته ولم ير ما يجازيه به أحسن من أن يقف شعره عليه وعلى أولاده ، ويصور ولاءه للمنصور أجمل تصـوير وأبدعه فهو عبد انعامه وولى نعمته ، واذا صور ذلك فانما يصور شعوره الذى يحس به نحوه دون تملق أو محاباه يقول :

أغلقت باب العـذر مـع تصـحيفه
والجـود عنـدك بـابه ... لا يغلق

مولاى سـمعا من وليـك مدحـة
عن صـدق ودى فى علاكم تنطـق

أنا عبـد أنعمـك القـديم وداده
وسـواى فى أقـواله يتمـلق

وهو فى قصيدته يضفى على الملك المنصـور تشبيهات عدة فهو يشبه الشمس ضياء واشراقا الا أن الشمس تحتجب ويسترها الغيم احيانا ، ولكن ضياء الملك المنصور مستمر متجدد ، وهو البدر رفعة وسناء غير انه لا يصيبه المحاق وهو الغيث غير انه مستمر التدفق هتان الشابيب ، وهو الليث الذى لا يخشى المنايا ولا يهاب الأعداء وهو أيضا السيف الذى لا يلين ولا يصيبه كلال أو كهامة الى آخر ما أسبغه عليه من التشبيهات الرائعة ، والبديعيات الجميلة :

كالشـــــــمس الا أنـــه لا يختفى
والبـــــــدر الا انه لا يمحـــــق
والغيـــــــث الا انـــه لا ينتهى
والليث الا أنـــه لا يفـــــــرق
والســـــــيف الا انـــه لا ينثنى
والســـــيل الا أنـــه لا يغـــرق
والدهـــــــر الا انـــه لا يعتـــدى
والبحـــــر الا انـــه لا يزهـــق[1]

والصفى مولع بتكرار التشبيهات فى شعره ما بين حين وآخر ، فشعره متأرجح بين الجدة والتكـرار ، وبين التقنن الجمالي أو بين المبالغة الخلاقة والمبالغة السيئة المستهجنة فنراه يكرر تشبيهاته ومعانيه فى غـير قصيدة « وها نحن نصل الى أكثر المعانى التى صاغها الشاعر فى قصيدة واحدة وفى مقطع واحد لا يتجاوز السبعة أبيات ، على انها من أجمل قصائده التعبيرية على الاطلاق ، فهى تجمع الى وضـوح الأفكـار واقتضـابها خفة الجمل وقصرها ، وندرة الخيال ولطائفة : يقول من قصيدته التى أولها :

ما هبت الريـــح الا هزنى الطـــرب
اذ كان للقـــلب فى مـــر الصـــبا أرب

ومنها :

قـــالوا هــو البــدر قلت البــدر منمحق
قالوا هــو الشــمس قلت الشــمس تحتجب

---

(١) الديوان : ١٢٣ .

قالـــوا هو الغيث قلت الغيث منتظـــــر
قالـوا هـو الليث قلت الليث يغتصــــب

قالـوا هو الســـيل قلت الســـيل منقطع
قالوا هو البحـر قلت البحـر مضـــطرب

قالـــوا هو الظـــل قلت الظـــل منتقـــل
قالوا هـــو الدهـــر قلت الدهـــر منقلب

قالوا هو الطـــود قلت الطـــود ذو خرس
قالـــوا هـــو المـوت قلت المـوت يجتنب

قالوا هو الســـيف قلت الســـيف ننـــدبه
وذاك من نفســـــه بالجـــود ينتدب[1]

والصفى وان كرر فى معانيه أو تشـــبيهاته فتكراره مقبول وغير ممل كبقية شعراء عصره ، فقد اهتم بتنويع المعـــانى وتكثيفها مع حسن الديباجة ورونق العبارة .

ومن درر قصائده فى المدح « الموشحات » وقد نقلها صفى الدين من موضوعاتها الأصلية التى تدور حول وصف الطبيعة والخمريات ومجالس اللهو والمجون وشكوى اللوعة الغرام وفرط الهيا مـــ نقلها الى فن المديح فنراه يروضها ويطوعها لهذا الفن فتطيعه غير مستعصية ، وتقبل سهلة ذلولا كأنها فى مراتع الصبوة والمرام ووصف الروض والحور الحسان ، وقد أبدع ايما ابداع ، وبلغ فيها أوج الكمال ومن هذه الموشحات ، موشحة قالها يمدح الملك المنصور نجم الدين غازى الارتقى يقول فيها :

شق جيب الليل عن نحـر الصباح أيهـــــا الســـــــاقون
وبدا للطـــل فى جيـد الأقـــاح لؤلـــــــؤ مكنـــــون

---

(١) الديوان : ١٩٨ .

ودعانا للـذيذ الاصـطباح طـائر ميمـون

الى أن يقول :

ملك أنجـد طـلاب النـدى غايـة الانجـاد
متلف ان جـال آجـال العـدى واللهـى ان جـاد
من بنى ارتق اعـلام الهـدى سـادة انجـاد
مهـد الأرضين بالعـدل فكان أمنهـا مضـمون
غيبهـا والشـاة ترعى فى مكان غـدره مأمـون

والقدرة واضحة فى هذه القصيدة ، والتفنن يملك الأفئدة ويستهوى الوجدان ، والموسيقى تشيع فى ثنايا الموشحة .

ومن امتع مدائحه قصيدته الرائية التى قالها فى مدح الصالح الأرتقى ، وقد بدأها بوصف روضة غناء فذكر ما فيها من أغصان منصوبة وماء ما بين مصروف وممتنع وظل ما بين ممدود ومقصور ، وريح رخاء ونرجس غض ، وأقحوان يافع ، ونوه بما كان له فيها من تصاب عاونه عليه شبابه اليافع ثم يصف مالابس ذلك من غناء ورقص وخمر وهنا يصف لك صفى الدين مغنيا يضرب على عوده وراقصات تميل وتنثنى وحامل كأس يدور بعطفه المخمور الى غير ذلك مما يرسم لك صورة حية فيحـاء وروضة غناء امتلأت حياة وحركة وأفعمت نعيما ومتعة :

فى روضـة نصـبت أغصـانها وغـدا
ذيل الصـبا بين مرفـوع ومجـرور
والمـاء ما بـين مصروف وممتنـع
والظـل مـا بين ممـدود ومقصـور

والريح تجـرى رخـاء فوق بحرتهـا
وماؤهـا مطـلق فى زى مأسـور

والريح ترقـــم فى أمواجـــه شـــبكا
والغيـم يرســـم أنـــواع التصـــاوير

والنرجس الغض لم يغضـــض نواظــره
فزهـــــره بين منغض ومـــــــزرور[1]

كأنه ذهب من فـــــــوق أعمـــــدة
من الزمـــــــرد فى أوراق كافـــــــور

والأقحـــوان زهـــا بين البهـــار بهـــا
شـــبه الدراهـــم مـــا بين الدنانـــير

وقد اطلنـــا التصـــابى حين ســـاعدنا
عصر الشـــباب بجـــود غـــير منـــزور

وزامـــر القـــــوم يطـــوينا وينشرنـــا
بالنفخ بالنـــاى لا بالنفخ فى الصـــور

والراقصـــات وقـــد مـــالت ذوائبهـــا
عـــلى خصـــور كأوســـاط الزنانـــير

ولم يفارق الصـفى الأسـلوب القـديم فى المدح فهو يبدأ أكثر هذه القصائد بالغزل والنسيب أو يبدأها بذكر الخمر أو وصف الطبيعة وكل هذه القصائد تشهد للصفى ببراعة الاستهلال وروعة المطلع واشراق الديباجة ، وهو بعد أن ينتهى من المقدمة يمهد للمديح فينتقل أحسن انتقال لا يشـعر السامع بأى اضطراب فيه ، ولا يحس بأى نبوة أو جفاء كقوله فى مدح الملك الصالح :

كيف الضـــلال وصـــبح وجهـــك مشرق
وشذاك فى الأكـــوان مســـك يعبـــق

---

(١) منغض : المغمض .

يا من اذا سفرت محاسن وجهه
ظلت به حدق الخلائق تحدق

أمسى يعاطينى المدام وبيننا
عتب ألذ من المدام وأروق

عانقته وضممته فكأنه
من ساعدى مطوق وممنطق

حتى بدا فلق الصباح فراعه
ان الصباح هو العدو الأزرق

فهناك أومأ للوداع مقبلا
كفى ·· وهى بذيلة تتعلق

يا من يقبل للوداع أناملى
انى الى تقبيل ثغرك أشوق

ولقد رضيت عن الصباح وان غدا
للعاشقين غراب بين ينعق

ثم يتخلص تخلصا رقيقا وينتقل الى ممدوحه بقوله :

وغفرت ذنب الدهر حين بدت له
من طلعة السلطان شمس تشرق

المالك المنصور ، والملك الذى
من خوفه طرف النوائب مطرق

نجم له فلك السعادة مطلع
بدر له افق المعالى مشرق

من معشر حـازوا الفخـار بسـعيهم
وبنى بهـم فـلك المعـالى أرتـق

وتراه بمدح هؤلاء السلاطين فيأتى بصور أخاذه ومعان رائعـة لم يسبق إليها اللهم الا اذا استثنينا ابن نباته يقول الصفى فى الملك الصالح :

ملكيـة فلكيـة يسـمو بهـا
كـرم ترنـح كنهـه فى ذاتهـا

سـبقت مواهبـه السـؤال فما له
عـدة مؤجـلة الى ميقاتهـا

ويقول فى مدح هؤلاء السلاطين مشبها شعره بالوشاح المطرز والسحر الحلال :

فقـد جعـلت الأرض من مدحكـم
خضرا وشـعرى جـائل كالوشـاح

خفضـت بالنفس اسـتعاراته
كمـا اعـير الذل خفض الجنـاح

اذا تـلاه الوفـد قـال الورى
هـذا هـو السـحر الحـلال المبـاح

ذكـرك كالمسـك ، ولكنـه
ان ضـوعته نسـمة المدح فاح[1]

ومعانيه فى المدح وان كان بعضها يتسم بالتقليدية لكن بعضها الآخر يتسم بالجودة والروعة والابتكار والجمـال ولا ننسى هـذه الصـورة التشخيصية التى أضفاها على الصبح ٠

---

(١) الديوان : ١٦٧ ٠

جـــللت حتى لو ان الصـــــبح لحت به
وقلت قف لا تلج فى الليـــــل لـم يلج

جـــردت أســـياف نصر أنت جوهـــرها
فى حـــالك من ظـــلام النقع منتســـج

جبرت كسر المعـــالى يابن بجـــدتها
بهـــا وقومت ما بالدين من عـــوج[١]

وهذا شبيه بقوله فى موضع آخر يخاطب المنصور ويتحدث عن جوده الذى يشبه الطوفان ويرسم للزمان صـورة مشخصة ولا تخلو أبياته من المبالغـة التى اشتهر بها .

رح أيهـــا الملك المنصـــور واغـــد على
هام العـــلا آمنـــا من حـــادث الغـــير

رفقت بالنـــاس فى كل الأمـــور فقـــد
أضـــحى الزمـــان اليهـــا شـــاخص البصر

ربـــوا لديك فلـــولا ان بعضـــهم
تجـــل عنـــه لقلنـــا يا أبا البشر[٢]

ونلحظ أن صفى الدين مولع بالتشخيص ليخلع على شـعره أثواب الروعة والابتكار والافتنان وهذا ما تميز به الصفى من اضفائه على الأشياء الجامدة أو المجردة صفة انســانية ترفع من قدرها وتعــلى من شـــأنها ، والشاعر بلغ فى هذه القصائد ما لم يبلغه شـــاعر قبله أو بعده من جـــودة الصـــناعة ، مظهرا بذلك ثبات قدم وعلو كعب فى حرفته وامتلاكا لناصـــية

---

(١) الديوان : ٧١٤ .

(٢) الديوان : ٧٢٤ .

الافتتان ولذا عرف هذا الشعر بعد ذلك باسـم الروضـة لما فيه من معانى رائعة ولفاظ آسرة وقد جاراه فى هذا اللون كثير من الشـعراء[1] ولعـل أصدق مدح نظمه الصفى هو مدحه للنبى محمد عليه الصلاة والسلام ، وقد تجلت فيه الروح المكبرة حقا والمجـلة العميقة لاجـاه يجنبه من ورائه ، ولا مقاما يحظى به ، ولا مالا أو رعاية فهو مدح طبيعى صاف خال من التكلف والمواربة ، ولا تزلف فيه أو مبـاهاة ، والغرض فيه اظهار مشـاعر الحب والاكبـار والتعظيم للنبى وآله ومحاولة اسـتغفار لما بدر منه فى حياته من هفوات ومعاص .

ولم يقلد فى مدائحه للرسول صلى الله عليه وسلم معانى البوصيرى أو شعراء عصره بل اتخذ له طريقة مستقلة تتميز بالابتكار والتفنن والتصوير الرائع لصفات الرسول ومناقبه ، ولا نعتقد شاعرا صور ما يختلج به صدره نحو الرسول الكريم على نحو ما صنع الصفى الا نادرا وقد ساعده على ذلك التفرد ايمـانه العميق وتفانيه فى حب الرسـول وآله ، وحسـه المرهف وشعوره المتدفق بحب آل البيت ، فقد خلف لنا الحلى صورا رائعة حية فى قصائده النبوية مع جمال اسلوبها وقوته فى انفعالات نفسية وأحاسيس وجدانية — يقول من قصيدته الرائية ، التى تميزت بحسن المطلع : فى غزل بديع :

كفى البـدر حسـنا ان يقال نظـيرها
فيزهى — ولكنـا بـذاك نضـيرها

وحسـب غصـون البـان ان قوامهـا
يقـاس بـه ميـادها ونضـيرها

ثم انتقل بحسن تخلصه الى مدح النبى الكريم :

---

(١) أعيان الشيعة : السيد محسن الأمين .

عذت تتقاضـــانا المســـير لأنهـــا
الى نحـــو خـير المرســـلين مســـيرها

ترضى الحصى شـــوقا لمن ســـبح الحصى
لديه وحيـــا بالســـلام بعـــيرها

الى خـــير مبعـــوث الى خـــير أمـــة
الى خـــير معبـــود دعـــاها بشـــيرها

الى أن يقول :

أيا صـــادق الوعـــد الأمـــين وعدتنى
ببشرى فلا أخشى ، وأنت بشـــيرها

بعثت الأمـــانى عاطـــلات لتبتغى
نداك فجـــاءت حاليـــات نحـــورها

وأرســـلت آمـــالا خماصـــا بطونهـــا
اليك فعـــادت مثقـــلات ظهـــورها[1]

فأنت ترى هنا الأحلام والأمانى العارية تكتسى الحلل الموشاة والآمال الضـــامرة الهزيلة جوعا وظمأ ، تعـــود بالكنوز الثقيلة الغالية ؟؟ ويمتلكك الاعجاب حينما ترى الحلى ينتشى بالخمر وهو فى حضرة الرسول الكريم ، ولكن تزول عنك الدهشة والاستغراب اذا علمت أنها خمر ترشـــف بالثغر وانها خمر للمشاعر والوجدان لا للأجســـام والثغور يقول من قصـــيدته السابقة .

وبين يدى نجـــواى قدمت مدحـــه
قضى خاطـــرى الا يخيب خطـــيرها

---

(١) الديوان : ٧٨ .

يروى غليـــل الســـــامعين قطــــارها
ويجـلو عيـــون النـــاظرين قطـــورها

هى الراح لكن بالمســــامع رشـــــفها
عـــلى انــه تفنـــى ويبقــى سرورها

وأحســـن شىء أننى قـــد جلوتهـــا
عليــك وامــلاك الســـماء حضـــورها[1]

ومن بدائعه فى المدح « الكافية البديعة وهى قصيدة تبلغ مائة وخمسة واربعين بيتا من الشعر وكلها فى مدح نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وسبب نظمها ما ذكره الصفى من وجود علة منعتـــه من تأليف كتـــاب فى البديع كان قد هيأ له بقراءة سبعين كتابا فى هذا الفن ثم رأى الرسول ﷺ فأشـــار عليه بتأليف قصيدة تغنيه عن تأليف كتاب البديع فعقد عزمه والتجأ الى الله ، ونظم مدحة نبوية طرزها بأنواع البديع موجدا بذلك فنا جديدا فى الشعر العربى عرف باسم البديعيات ولنســـتمع الى الصـــفى الحلى وهو يحدثنا واصفا بديعيته بقوله : « فنظمت مائة وخمسة وأربعين بيتا من بحر البسيط تشتمل على مئة وواحد وخمسين نوعا من محاسنه « أى البديع » ومن عد جلة أصناف التجنيس بنوع واحد كانت عنده العدة مائة وأربعين نوعا فان فى السبعة الأبيات الأوائل منها اثنى عشر صـــنفا منه[2] وجعلت كل بيت شاهدا ومثالا لذلك النوع وربما اتفق فى اليت الواحد منها النوعان والثلاثة بحسب انسجام القريحة فى النظم ، والمعتمد على ما أسس البيت عليه ، ومطلع بديعيته وفيه براعة المطلع ، وهو سهولة اللفظ وعذوبته وصحة سكبه ووضوح المعنى ورقته وعدم الحشو وألا يكون البيت متعلقا بما بعده مع تناسب البيت بما يتلوه من الأبيات — يقول :

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) شرح بديعة الصفى « النتائج الالهية » ، ص ٣ .

ان جئت سلعا فســل عن جــيرة الغــلم
واقر الســلام على عــرب بذى ســلم

وقد بدا أيضا فى البيت الجناس المركب وهو ما كان احد لفظيه مرد.
من كلمة وبعض كلمة ، أو كلمتين والآخر بسيطا من كلمة واحدة فهو كقول
طاهر بن صالح الجزائرى :

بديع حســن بدور نحــو ذى ســلم
قــد راقنى ذكــره فى مطــلع الكــلم

وحيث لــم يلف انصــارا فلا عجيب
أن صــار مدمعــه ينهــل كالريــم[1]

ومن أبيات الصفا قوله فى الكافية البديعية ذاكرا فيها النوع البديعى
المسمى بالنزاهة :

حســبى بذكــراك لى ذما ومنقصــة
فيمــا نطقت فــلا تنقص ولا تــذم[2]

وفى تشابه الأطراف يقول :

لم أدر قبــل هواهم والهــوى حــرم
أن الظبــاء تحــل الصــيد فى الحرم

و (براعة ختام) هذه البديعية :

فان ســعدت فمدحى فيــك موجبــه
وان شــقيت فذنبى مــوجب النقــم

---

(١) البديعيات فى الأدب العربى : على ابو زيد ، عالم الكتب . بيروت سنة ١٩٨٣ .

(٢) ففى البيت النوع البديعى « النزاهة » وهى عبارة عن الاتيان بألفاظ فيها معنى الهجو الذى اذا سمعته العذراء فى خدرها لا تنفر منه .

ومامن شك فى أن القارىء لهذه البديعية يشعر بانقياد الألفاظ مع الوزن للشاعر كما يشعر الانسان بعاطفة تفرض نفسها على أحاسيسه موحية بمشاعر الشاعر الصادقة ، وهذه العاطفة قلما وجدنا مثلها فى باقى « البديعيات » .

وبالاضافة الى اهتمام الشاعر بالبديعيات فقد ازدحمت القصيدة أيضا بأجواء رحبة من الشعر الملحمى ، وبدا فيها الجو البطولى العام الذى صور فيه الشاعر جيش النبى وطعانة الأعداء — كما كانت هذه البطولة مجالا رحبا لخوض مختلف المعانى والأساليب التى تمكنه من اصابة هدفه من ايراد عدد كبير من الوان البديع يقول :

أفنى جيوش العدى غزوا فلست ترى
سوى قتيل ومأسور ومنهزم

سناه كالنار يجلو كل مظلمة
والبأس كالنار يفنى كل محترم

لاقاهم بكماة عند كرهم
على الجسوم دروع من قلوبهم

بكل منتصر للفتح منتظر
وكل معتزم بالحق ملتزم

فأنت هنا أمام شاشة سينمائية تتوالى عليك فيها مشاهد المعارك من قتلى — ومأسورين ومنهزمين وتشاهد الحق وقد ارتفع بنده وخفقت راياته والشرك وقد ذهب فى نفق الى غير رجعة والكفر وقد قذف الله فى قلوبهم الرعب والفرق ، والدين وقد اشتد جانبه ، وأصبح فى حرم من الله :

فالحق فى افق والشرك فى نفق
والكفر فى فرق والدين فى حرم

والذى يميز البديعية الحلية عن غيرها من البديعيات هو أنها لم تذكر علنا النوع البديعى مع كل بيت بل جعلت ذلك مستنتجا ومستنبطا من قبل القارىء وذلك من خلال عنوان « البيت » الذى يتصدر كل أبيات البديعية وبذلك فقد خفف الحلى على القارىء وجعله يتولى استنتاج النوع البديعى بنفسه وكذلك وفر على نفسه مكابدة التكلف الذى ينشأ من التعريف البديعى داخل البيت الشعرى كما كان يفعل ابن حجة الحموى حيث يقول :

لى فى ابتـــدا مدحكـــم يـــا عـــرب ذى ســـلم
براعـــــة تســـــتهل الدمــــع فى العـــــلم

ورمت تلفيــــق صــــبرى كى أرى قدمى
يســـــعى معى فســـــعى لكن أراق دمى

وذيل الهــــم همـــل الدمع لى فجـــرى
كلاحـــــــق الغيث حيث الأرض فى ضرم

فالبيت الأول يتضمن لون حسن الابتداء وبراعة الاستهلال ، والبيت الثانى يتضمن لون التلفيق والثالث يتضمن « التذييل » ولذلك فقد انحطت بديعية الحموى كثيرا عن بديعية الحلى بسبب التكلف الجـاد الذى نقل القصيدة من الشعر الى التعريف البديعى الخالص،ولقد عبر الحموى نفسه عن جودة بديعية الحلى فى معرض حديثه عن الظروف التى احاطت بنظمـه لبديعيته فوصف بديعية الحلى « برقة السحر الحلال الذى ينفث فى عقد الاقلام ، كما كان استاذه ومولاه القاضى البارزى يقول معلقا على أبيات الحموى « بيت الصفى أصفى وردا وأنور اقتباسا »[1] .

وبديعة صفى الدين بسهولتها وسلاستها وتفنن صورها البديعية تغرى طالب البديع والبلاغة أن يستغنى بها وبشرحها عن كثير من المطولات وقد قال صفى الدين فى فاتحة هذه القصيدة .

---

(١) زكى مبارك : المدائح النبوية ص ١٧٣ .

انظر أيها الناقد الأديب ، والعالم اللبيب ، الى غزارة الجمع ، ضمن الرياقة فى السمع ، فانها نتيجة سبعين كتابا لم أعدمنها بابا ، فاستغنى بها وبشرحها عن كثير من المطولات وحشوها ، ووعر الألفاظ وخشونتها •

ومدائح الصــفى كثيرة ، وهى مع كثرتها تمتاز بالجودة والاتقــان ، وازدحام الصور البيانية والبديعية هذا مع حسه المرهف وذوقه الرفاف الذى تراه ماثلا أمامك فى كل قصيدة بل فى كل بيت ، وتلك مقدرة أدبية لم ينلها أحد من شعراء عصره الذين كانوا عالة على الاسلاف القدماء من الفحول ، ولم يكونوا ناجحين فى تقليدهم والافادة من شكل أدائهم الفنى فحسب ، وانما كانوا محدودين فى نظراتهم مشلولين فى ابداعهم وكان شعرهم يتدنى ويسف كلما تقدم الزمن وابتعدت الثقة بينهم وبين من سبقوهم حتى بلغ المنحنى الشعرى أدنى مستوى فى احداره •

فجاء صفى الدين الحلى فأيقظ الشعر من سباته وبوأه المنزلة العليا ، والمكانة المرموقة واستحق ان يوصف « برقة السحر الحلال الذى ينفث فى عقد الاقلام على حد قول الحموى السابق عنه ، غير أن ما يؤخذ على شاعرنا تلك المبالغات غير المقبولة التى اضفاها على ممدوحيه من الســلاطين فقد أسرف الحلى فى تشبيه ممدوحيه بصــفات الأنبياء بل تجرأ وفضــلهم على الأنبياء ، فممدوحه هو موسى الكليم الذى لا يصعق ، وهو المسيح الثانى وهو نبى عصره ، وهو نجم السماء ، الخ كما أسبغ عليهم من صفات بلغت حد الاسراف والعلو وتجــاوزت حد المعقول والمنقول ، ولولا تلك الهنات التى أنقصت من شاعريته لصار أمير شعراء عصره دون منازع •

الفصل الثالث

الـــــــرثاء

الفصـــل الثالث

الرثـــاء

الدنيا يومان يوم فرح وسرور ويوم ترح وبكاء وتلك سنة الله التىْ فطر الناس عليها لا دوام لحال ، ولا بقاء لشيء :

يبقى الالـــه وكـــل شيء هــــــــنالك
تتغـــــــير الدنيـــــا ولا نتغـــــير

والناس يضحكون فى ساعة الميـــلاد ويبكون ســـاعة الموت ، وشتان ما بين الساعتين فدمعة الوداع حرى كاوية ولا سيما اذا كان المودع حبيبا أو رفيقا أو عزيزا أو شريك حياة على هذا يسير الكون ويدرج الوجود منذ أن خلق الله العبـــاد ، الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ولن تجد لســـنة الله تبديلا •

والدموع الغزار التى سالت من العيون العربية على مدى الزمن فى أيام البؤس والشقاء والنكبات قد لا تعدلها دموع أمم كثيرة لأن الحيـــاة التى عاشوها ويعيشـــونها تستدعى هذا البكاء ، يضـــاف اليها شيء آخر يرد من طبيعة الشرق ، أرض الدموع والأنين •

ولقد بكى العربى أقرب الناس اليه بكى نفسه وفلذة كبده ، وقسيم حياته وأخاه وصديقه وسيد بلده وشـــيخه ، ووطنه[1]

ولقد كان الرثاء غرضا رئيسيا من بين أغراض الشـــعر الرئيسة ، وتنـــاول الشـــعراء هذا اللون من الأدب ولم يتركوا صـــغيرة ولا كبيرة

---

(١) مطالعات فى الشعر المملوكى والعثمانى ، دكتور شيخ امين ص ٩٧ .

الا ونظموا فيها شعرا حزينا مؤثرا والظاهرة البارزة فى شعر هـ ذا الباب البكاء على الدول البائدة والمدن الزائلة والنكبات الهائلة التى أخذت حيزا كبيرا من نتاج شـعراء هذا العصر •

ولقد تعرض عبد العزيز بن سرايا فى حياته لمثل هذه النكبات ومنى بالخطب والأرزاء وذلك بسـبب موت أولياء نعمته وصـفوة من أقربائه وأصدقائه ، فقد شهد موت كل من المنصور نجم الدين ملك ماردين والناصر محمد بن قلاوون ملك مصر والشام والسلطان المؤيد عماد الدين بن أيوب ملك حماه ، وكذلك اختطاف الموت لاخواله واشقائه وأبنائه ، والعديد من لداته وأترابه من رجال الفكر والأدب •

فشهاب الدين محمود الأديب الكاتب الشاعر المعروف يرثيه الحلى بقصيدة جميلة تنم عن تقديره للأدباء ، وللأصدقاء الذين تربطه بهم صلة الصداقة والفكر • وقد حشد فيها كعادته حشـودا من الصـور البيانية متناثرة فى ثنايا القصيدة فللمنايا اظفـار لا ينجو منها الكمى المقدام ، وليث العرين الصنديد ، ويتعجب من المنايا كيف تقترب من شهاب الدين ويسخر من الذين يدعون أن الشهب خـالدة لا يذهب ضياؤها ولا يفنى سناؤها ، واذا كان الأمر كما يزعمون فأين اذا شهاب الدين محمود لقد ضل سعيهم ، اذ ان كل شىء ذاهب وهالك كما قال تعالى : « كل شىء هالك الا وجهـه» ولا تخلو القصيدة من المبالغة والتهويل كعادة تصوير الصفى التى تجعل من الملك نبيا كموسى غير أنه لا يصعق ، يقول فى رثاء شهاب الدين :

حبـل المنى بحبـال اليأس معقـود

والأمـن من حـادث الأيـام مفقـود

والمــــرء ما بــين أشراك الردى غــرض
صميه بســـــهام الحتف مقصـــود

لا تعجبن فمـــا فى المــوت من عجب
اذ ذاك حــدٌ به الانســـان محــدود

فالمســتعاد من الأيـام مرتجـــع
والمســـــتعار من الأعمـــار مـردود

وللمنيــة اظفـــار اذا ظفـــرت
رأيت كل عميـــد وهـو معمـــود

لم ينج بالبـأس منهـا مع شراســـته
ليث العـرين ولا بالحيـلة الســـيد

قـد ضـــل من ظن بعض الكائنـــات لها
مكث وللعـــالم العـــلوى تخـــليد[1]

ألم يقـــولوا بان الشـــهب خـــالدة
طبعـــا ، فأين شـــهاب الدين محمـود

وكما يرثى أصدقاءه فكذلك يواسيهم بندبه لأبنائهم عند وفاتهم ، بل ان هناك أمرا آخر يظهر فى مراثى الشاعر ويشى بكرم نفسه وعفتها ، وهو انه لم يكن متهافتا على موائد الأمراء ورجال الحكم العاديين فى عصره كالولاة والأمراء — فقد كان شاعرا مترفعا فى مدحه لا يمدح الا الملوك — يتجلى هذا فى مراثيه لعدد من الأمراء والولاة وحديثه عن مناقبهم بعد وفاتهم ، بينما لم يتعرض بالمدح لأى منهم فى حياته فأى اباء عند شـــاعرنا ، وأى وفاء منه لمن كانت له به سابقة ود ومعرفة .

---

(١) الديوان : ٣٥٧ .

ويتراوح الرثاء عنده بين البكاء والتــألم وبين المجـــاراة الاجتماعية الشكلية ، ومن الطبيعى أن يكون البكاء على المقربين اليه دما ونسبا أكثر توجعا وأشد حرقه ، فيحتل رثاؤه لأخيه وأخواله المرتبة الأولى فى ســلم الحزن والتفجع ، بينما لا يظهر فى رثاء الآخرين أكثر من الأسف والانقباض والمشـــاركة الرسمية بالرغم من تكلفة المشـــاعر المعتمه والخطب الأليم والانقباض المظــلم •

ولرثائه لأخيه وقع جارح على النفس لأن الشـــاعر لا يكتفى بالبكاء الخالص بل يتوجع فيوجع سامعه ، ويئن ساكبا دمه وكمده نائحا نواح الخنســاء •

بكيت دمــا لو كان ســكب الدمـــا يغنى

وضـــاعفت حــزنى لو شــفى كمدا حزنى

وأعرضـــــت عن طيب الهنـــــــاء لأنني

نقمت الرضـــا حتى على ضـــاحك المزن

ثم يشكو بثه وحزنه ، ويصور حياة الناس فى الدنيا بحلم النائم ، فلذاتها سرعان ما تنقضى واحداثها زائلة فانية ، ثم يشـــيد بنقاء وطهارة اخيه وتقواه حتى ليرتج عليه الشعر فيكاد يخطىء الوزن من فرط اللوعة والضياع •

مضى طـــــاهر الاثواب والنفس والخطى

عفيف منـــــاط الذيل والجيب والردن

وقد كنت تحى الليل بالذكـــر ضـــارعا

الى الله حتى صرت بالنســـك كالشــن[1]

---

(١) الشن : القربة البالية .

جعلت جبال الصـــبر بالحزن صـــفصفا
وصـيرت أطـــواد التجــلد كالعهن

وحـاولت نظـم الشـــعر فيك مراثيـــا
فلرتـج حتى كــــدت اخطىء فى الوزن

وتعد هذه المرثية من أصدق مراثيه فقد أودعها جماع عاطفته وأحزانه ، والبســها ثوبا مشرقا من الديباجة فلا تكلف ولا تعقيد ولا لعب بالصــور والأشكال البديعية المعتادة . ولكنى انتقده فى تشبيهه أخاه بالقربة الباليه فهو تشبيه ممجوج ، وهناك تشبيهات أرقى من هذا التشبيه كان يمكن أن يستخدمها الشاعر .

وجل مراثى صــفى الدين جيدة يعبر بها عن شــعور فياض وعاطفة صادقة واحساس متدفق ، لأنه لم يرث غريبا ، لا يحرك وجدانه ولا يهز مشاعره، ولا يشعر لفراقه بحزن، فالذين رثاهم هم أقاربه وأهله والسلاطين الذين يرثيهم مثل أهله وأصدقائه ، لهذا نلمس فى مراثيه احساسه باللوعة والأسى لفراقهم ، وتصــويره الحــزن مخيما على الجميع وهو يبكيهم بكاء مرا وينشج نسيجا محزنا يقول فى رثاء خاله فى قصيدة باكية يصور فيها المجد كيف ينهدم وعروة الملك كيف انفصمت عراها وتبددت قواها ، وكيف غدت شهب البزاة مهددة يعتدى عليها البغاث والرخم والحداة ، وكيف أصــبح عرين الأسد تحكم فيه الذئاب والأوغاد ، ويؤثر الشاعر ان يتخطفه الموت ويغيبه الثرى على أن يرى خناله فى هذا الموقف ويعلنها ضد العدى حربا تخوضها الابطال الصــناديد الذين يشــبهون الأسد فى عزمتهم والجبال فى ثباتهم لا يهابون الموت ولا يخشون الردى يقول فى رثاء خاله :

انظـــــر الى المجــــــد كيف ينهــــدم
وعـــروة الملــك كيف تنفصــــــم

وأعجب لشــــــهب البزاة كيف غــــدت
تســـطو عليهــا الحــداة والرخــم

قـــــد كنت اختــــــار أن أغيب فى
التراب وتبـــــلى عظـــــامى الرمم

ولا أرى اليــــــوم عـــن اكــابرنا
اســـدا وفيهــا الذئاب قـــد حكمـــوا

ثم يشعلها حربا حامية الوطيس لا تبقى ولا تذر :

ان لم نقـــدها شــــعثا مضـــمرة
تخوب من نـــار حقـــدها اللجـــم

بكـــل أزر فى متنــــه أســـــد
وكل طـــور من فـــوقه صـــنم

ثم ذكر فى آخر القصيدة أن دمعه هتان على الفقيد لا ينقطع ، وأن نار الأسى فى حشاه شديدة الأوار مستمرة اللهيب ، ثم يقول كيف يرقأ لى دمع وتنطفىء نار الأسى وقد كنت لى الديمة المدرارة التى طالما أمدتنى بوابل من فيضها ونداها[1] .

يذكـــرنى جـــودك الغمـــام اذا
أصـــبح دمـــع الغمـــام ينســـجم

اذ كنت ديمــــة تســـــح ولا
ينســــاك قلبى ما ســـحت الديـــم

لا جمـــدت ادمعى ولا خمـــــدت
نار اسى فى حشـــــاى تضـــطرم

---

(١) الديوان : ٣٢٨ — ٣٣٠ .

وكيف يرقـــا عليـــــك دمـــــع فتى
ولحمـــــــه من ثــــراك ملتحـــــم

والحلى قد أبدع فى مراثيه وتفنن فى استعظام الخطب ، وتصوير وقعه فى النفوس ، ويتحدث عن الخطوب والارزاء فى المراثي ، وكأنها حلت بساحته ونزلت بمحلته غير اننا نلحظ رغم ذلك تركيزه فى بعض الاحيان على المعانى التقليدية من طلب الرحمة واستسقاء الجدث والدعوات بفوز الفقيد برضوان الخلد ، والفردوس الأعلى وما يتصل بذلك من الافاضة فى مدح صفاته واظهار فضائله ومناقبه كقوله :

فسقى عهدك العهاد فقد فزت بزلفى الجنان فوزا عظيمـــا

وعليـــك الســـــلام حيـــا وميتـــا
ورضيعا ويافعـــــا وفطيمـــــا[1]

وقوله فى رثاء خاله :

حيـــا الحيـــا جـــدثا حـــلت بتربه
حتى تعطـــــــــــر نشره فيطيب

لا زال تبكيـــه عيـــون ســـــحائب
للبـــرق فى حـــــافاتهن لهيب[2]

وقال يرثى جماعة انسابه ويذكر خاله جلال الدين

ســـقى الله تربا ضـــم جســـمك وابلا
ينمـــق روضـــــا بـــرده ويفـــوف

(١) الديوان : ٣٣٧ — ٣٣٨ .
(٢) الديوان : ٣٣٤ .

اذا انكـــرت أيدى البـــلى عرصـــاته
ينـــم على ارجـــائه فيعــــرف

وينكر عليه بعض النقاد انه لم يأت بصـــور جـــديدة فى الرثاء ، وأن معانيه التى طرقها ، قد طرقها الاقدمون قبله :

وأنا أرى ان هذا تحـــامل على الحلى فمعانى الاقدمين وتعبيراتهم هى الزاد الذى نتزود به بل هى تراثنا الذى نعتز به ونسير على نهجه ، ونقتص أثره ونمشى على منواله وكما قال عنترة :

ما أرانـــا نقـــول الا معـــادا
أو معـــالا من قولهـــم مكـــرورا

وليس معنى هذا ان نتواكل على الأقدمين ولا نبتكر أو نجدد ، بل نأخذ منهم ونعمل فكرنا فيما تركوا وخلفوا ، وهذا ما صنعه الحلى فلم يقلد تقليد أعمى بل قلد وابتكر وأخذ وجـــدد ، ولعمرى لقد وفق أيما توفيق فيما ذهب اليه ، وعيون قصائده الباكية تشهد له بهذا التقدم كقوله يبكى المنصور وقد فاجأه المنون فجزع عليه صفى الدين جزعا شديدا ، وبكى فيه الندى الجم والحلم الرحب والتواضع الكريم :

يا بـــدورا تغيب تحت التـــراب
وجبـــالا تمـــر مـــر الســـحاب
ان فى ذلك اعتبـــارا وذكـــرى
يتـــوعى بهـــا ذوو الألبـــاب

---

(١) الديوان : ٣٣٩ .

قل لصـــادى الآمال لا ترد العيش فان الحياة لمع السراب

أين رب السرير والجيزة البيضـــاء ذات النخيل والأعناب

عرصــــــات كأنهـــن ســــــماء
قد توارت شموســــها فى الحجـــــاب

انك تقرأ هذه المراثى فتشعر بها نابعة من أعماق قلبه ، وثنايا وجدانه ،
وتراه فيه يركض ركضا قويا يداور المعنى ويقلبه عدا جميع صوره البيانية المستطاعة تقريرا له فى النفوس ، وتأكيدا له بذهن السامع .

الفصل الرابع

« الغـــــزل »

الفصـــل الرابـــع

« الغــــزل »

أخذ الشاعر فى هذا العصر نصيبه من المدح ليكسب رزقه وأخذ منه شعره نصيبه من الغزل ، لا ليعبر عن شـــعوره فحسب ، وانما ليقلد حينا ويجدد حينا آخر ، فكان يأتى بصور معروفة ومعان متداولة يزيدها أو يغير فيها أو ينقلب عليها ومهما يكن من أمر فان الشاعر اتخذ النسيب تكأة له يخلص منه الى ممدوحه ، ولكنه صرف قسما من شعره فقصره على المديح وحده ، وحاول ان يجدد فى المعانى التى استحدثها ، وكان من تكملة ذلك الفن أن يتطرق الشاعر بالاضافة الى النسيب الى نعت الخمر وذلك جريا على سنة الشعراء المبرزين فى هذا المضمار ، سواء عندهم أشربوها أم لم يشربوها ، اذ غدت تشكل معنى واحدا يتمم معنى النسيب والغزل ، ويندر ان تجد شاعرا مجردا منها ، وقد لاحظنا ان معظم الشعراء فى هذا العصر حاولوا فى مطالع النسيب والغزل ان يخرجوا على المعانى التقليدية المعروفة فاعرضـــوا عن ذكر الدمن والأطلال والرســـوم فى معظم الاحيان اقتـــداء بأبى نواس الذى كان يسخر ممن يقف على ديار الأحبة قائلا :

عاج الشــــــقى على دار يســــــائلها
وعجت اســـــأل عن خمـــارة البـــــلد[1]

وشعراء هذا العصر سخروا بدورهم أيضا من الشعراء الأقدمين الذين كانوا يتغنون بالديار وذكر أطلال الأحبة الدائرة فى ملاعب عالج ، ورمال كاظمة ووادى القرى ، ومرابع رضوى والعقيق وكـــرهوا كل ما كان يدور حول ذلك ، وان كانوا قد قلدوهم فى بعض المعانى التقليدية الأخرى كالدعاء

---

(١) ديوان ابو نواس : ص ٤٦ .

بسقيا جدث الميت وانزال شآبيب الرضوان عليه وتبشيره بفراديس الجنان ، والحور والولدان .

وقد استعاضوا عن بكاء الأطلال وذكر الديار بوصف ما حولهم من بقاع جميلة ، وطبيعة خلابه ورياض غناء ، وبساتين وارفه[1] .

ويظهر ان نساء الفرنجة كان لهن دور كبير فى صرف الشعراء عما ألفوه فهذا ابن القيسرانى يعشق جارية اسمها مارية ، وهى حسناء فرنجية من مولدات انطاكية وتنسيه ذكر سعدى وريا :

اذا مـا زرت مـاريا
فمـا سـعدى ومـاريا

نهـا وجـه مسـيحى
تـرى الميت به حيـا[2]

وعلى الرغـم من كل ذلك فانهم بشكل ما كانوا اوفياء على ما ورثوه ، فنجدهم يصورون الحبيب ويتحدثون عن جماله ، فيكررون الأوصاف ذاتها ويذكرون ما فعله بهم من تبـاريح الجوى والهيام وألم الفراق ، ووصف البعاد والهجران وعدم الاكتراث بالرقباء والعذال والوشـاة وغير ذلك .

وليس معنى هذا ان شعراء هذا العصر لم يأتوا بجديد — فسنرى صفى الدين الحلى كيف حلق فى هذا الفن وأبدع وفاق شعراء عصره ولا شك أن الظروف التى كانت محيطة بالحلى كانت عاملا فعالا فى سبقه فى هذا الفن فقد كانت أسباب طرب حافلة ، ومحافل أنس آهلة ، مما لا تخلو منه قصور الملوك والأمراء والرؤساء والأعيان ، وقد بلغ الصفى من الاتصال بهم حظا موفورا

---

(١) انظر الادب فى الدول المتتابعة للدكتور عمر موسى ص ٤٨٤ ، دمشق المكتبة العباسية .
(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٩٩ .

مما يثير العاطفة ويزكى الرغبة ، وقد بدا صدى هذه الحياة الزاخرة فى شعر صفى الدين غزلا فى المذكر والمؤنث على السواء ، ووصف الليالى الجميلة التى قضاها بين ملذاته ، وقد انساق صفى الدين وراءها حتى مجن وزاد مجنونه ، وتبذل وفجرتمباذله ، وانحدر الى الأدب المكشوف والأوصاف الفاضحة ، ومرج غزلياته أحيانا بخمرياته مزجا معجبا ، ووصف ما يصاحبها من ندمان وراقصات وكؤوس وزجاجات وما الى ذلك ، وقد جمع صفى الدين بين الغزل النفسى والحسى ، فكما وصف القرب والبعد ، والوصل والصد ، والسهر والدمع ، وصف العيون الساحرة والجفون الفاترة القاتلة ، والخدود الناعمة ، والنهود القائمة ، والأعطاف المائلة والأرداف الحافلة وما الى ذلك ، ولكن غزله النفسى أربى وأكثر ، وأملح وأسحر • ومن غزله وفيه نزعة نفسية[1] :

لولا الهـــــوى ما ذاب من حنينـــه
صـــب أصـــابته عيـــون عينـــه

متيم لا تهتـــدى غـــواده
الا بمـــا تســـمع من أنينـــه

أصـــبح يخشى الظبى فى كناســـه
ولا يخـــاف الليث فى عرينـــه

والصفى فى شعره لم يبعد عن أساليب الغزليين المتقدمين فكان غزله قصائد ومقطوعات يصف بها عاطفته وحبه ، وشعوره واحساسه ويصـور الحبيب وبعض لياليه فى أيام الصبا يوم ضحك له الزمان ، ويعبر عن لوعة الفراق وألم البعد ونار الجوى ، ويتحدث عما يتمنى وتتمنى معه نفسه من لقاء الحبيب ، وكان يصف ذلك فى اليقظة والحلم ، والغزل عنده يميل الى الأوصاف المادية ، فهو يجسم جمال المحبوب فيصف القامة والخصر والردف والصدر ويصف الشعر والخد والوجه والعينين فقوامه كالرمح أو الغصن :

---

(١) صفى الدين الحلى : صفحة ٦٧ .

مليح يغير الغصن عند اهتزازه ووجهه مشرق كالبدر يضيء بنور لألاء :

حتى اذا تم معنى حسـنه وبـدا
كالبـدر فى التم أو كالشـمس فى الشرف

وخصره الرقيق ينـوء بردفه الثقيل :

بخصر مثـل عاشـقها نحيـل
وطـرف مثـل موعـدها سـقيم

وفى خده نار تلظى كأنها نار الكليم :

ظبى من الأتراك فـوق خـدوده
نار يخبـر لهـا الكليـم ويصعق

وثغره كأس ملىء باللؤلؤ والدر :

بكأس حكـاها ثغـره فى ابتسـامه
بمـا ضـمه من ورده وعقيقـه

وعينـه ترشـق قلب المحب بالنبـل
هـا قـد جرحت بنبـل عينيك الحشـا

وشعره أسود كأنه الليل المدلهم :

سـفهن رأى المـانوية عنـدما
أسـبلن من ظـلم الشـعور غيـاهبا

وليس ذلك فقط ما يعشقه الصفى ويعجب به وانما وجدناه يمجد الحب الروحى ، ويعجب بالكثير من المعنويات كالصوت والحديث الذى يسكر به :

يحـــاول طـــرف لحظـــة من خيـــاله
ويشـــتاق ســـمعى لفظـــه وكـــلامه

وكثيرا ما يزاوج بين اللفظ الحماسى وألفاظ الغزل يقول :

البيض دون لحـــاظ الأعين الســـود
والســمر دون قدود الخـــرد الغيـــد

والموت أحـــلى لصـــب فى مفاصـــله
تجرى الصـــيانة جـــرى الماء فى العـــود

فهنا صورة عناصرها من مقومات الصور الغزلية والصور الحماسية ، فنشاهد الأعين السود بجوار السيوف البيض ، والرماح السمر الى جانب القدود •

ومن هذه الروائع الغزلية رائعته الميمية يصف فيها فتاة مشرقة الوجه مختالة القوام مرفهة منعمة أحبها فهـام بقدها ولماها وقرطها وخدودها

بدت تختـــــال فى ذيـــل النعيم
كمـــا مال القضـــيب مع النســـيم

وأشرق صـــبح واضـــحها فولى
هزيـــع الليـــل فى جيش هـــزيم

نظـــرت اليـــك فاســـتأسرت قلبى
فأدركنى الشـــــقاء من النعيـــم

نطـــرفى من خـــدودك فى جنـــان
وقلبى من صـــــــدودك فى جحيم

أرى ســـقم الجفـــون يرى فـــؤادى
وعلمنى مكـــــابدة الهمـــــوم

لعــــل الحب يرفـــــــق بالرعـــــــايا
ويأخـــــــذ للبرىء من الســــــــقيم

وفى فن الحوار الغزلى فقد فاق الحلى من تقدمه وشـــأى من سبقه فى لطافة حوار وجزالة تعبير وبلاغة أسلوب ، كما تميز حواره بعمق الخيال ووفرة الصور ينثرها هنا وهناك وقد بدت قمة التصوير الشعرى فى هذا التشبيه الطريف فى الحوار الذى جرى بينه وبين أحد المحبين :

أنت ضـــــــــدى اذا تيقنت قـــــربى
والوفى الشـــــــــفيق عنـــد فراقى

فلهذا أصبحت امنحك البعد وعــذرى تعــذر الاتفــاق
مثل قول الشمس المنيرة للبدر بلفظ العتــاب والاشــفاق

أنا أكســــبتك الصــــفاء وكمــــــلت
لك النـــــور ليـــــــلة الاشراق

واذا ما دنـــوت بالقــــــرب منى
نلت منـــك الكســـوف حـــال التلاقى

قــــــال أنت البــــــادى لأنى فى
بعـــدك أدنـــو اليـــك كالمشـــتاق

فاذا مـــا سررت منـــــك بقـــرب
كان مـــع ذلك السرور محــــــاقى

أرأيت كيف استوحى الشاعر صورته من حركتى الشمس والقمر ، ومن علاقة كل منهما بالآخر وهل لمثل ذلك من مستوى ، سوى مســتوى العمق والشفافية فى شق استار الخيال ، والجديد فى هذه الصورة ليس ما ذكره عن

(١) الديوان : ٦٠٥ .

تأثر القمر بالشمس أو عن البعاد الذى يورث الشوق أو القرب الذى يبعث على الملل كل هذه من المعهودات ... انما الجديد فى كون القرب ينقص ويكسف كالكسوف الذى يحصـل للشمس ، أو كالخسـوف الذى ينـاله القمر من اقتراب كل من الآخر ، وكذلك من كون صديقه لم يشعر فى بعاده بما يشعر به الناس أو حتى صديقه الشـاعر ، بل بما يشـبه التدانى الذى يعترى المشتاق وان الشـاعر كان ظالما فى تأثيره عليه حينما دنا صـديقه منه دنوا حقيقيا حيث ناله منه المحاق وهو الخسوف الكلى ولم تخل هذه الصـورة من بعض التعقيد لأن وجه الشبه منتزع من مخيلة الشاعر أكثر مما هو من تجربة شعورية معاشة لكنها مع ذلك لا تخلو من طرافة وجدة وارتياح .

وهناك قصائد فى الحوار أيضا قالها فى المرأة تنم عن سلامة طبع وجمال أسلوب ، وليس أدل على ذلك من قصيدته المشهورة (قالت) التى يغنيها الدكتور محمد عبد الوهاب وهى تجرى على أسـلوب الحكيم فى روعة بيان وسحر بلاغة :

قالت : كحلت الجفـــون بالوســن
قلت : ارتقـــابا لطيفـــك الحسن

قالت : تســـليت بعـد فرقتنـــا
فقــلت عن مســكنى وعن ســـكنى

قالت تشـــاغلت عن محبتنـــا
قلت : بفـــرط البكـــاء والحـــزن

قالت : تناســـيت قلت عافيتى !
قلت : تنـــاءيت قلت عن وطنى

قالت تخـــليت قلت عن جلـــدى !
قالت تغـــيرت قلت فى بـــدنى

قالت : تخصـــــصت دون صـــــحبتنا
فقـــــلت بالغبن فيــــــك والغبن

قالت أذعت الأسرار قلت لهـــــــــا
صـــــير سرى هـــواك كالعــــلن

قالت سررت الأعـــــداء قلت لهـــا
ذلك شيء لو شـــــئت لـــم يكـــن

قالت فمـــــاذا تـــروم قلت لهـــا
ســـاعة ســـعد بالوصـــل تســـعدنى

قالت فعـــين الرقيب تنظـــــــرنا
قلت فانى للعـــــــين لـــم أبن

أنحـــلتنى بالصـــدود منـــك فلـــو
ترصـــــدتنى المنـــون لـــم ترنى[1]

وتفرد صفى الدين بخصائص فى شعره لم نجدها عند شعراء عصره من معان جديدة استحدثها فى باب الغزل والنسيب ، وتحمل كثيرا من الطرافة والجدة وبهذا استعاض الشعر ما اصابه فى عصره من جمود وركود ، وضعف ووهن ، فنراه يرسم صورا جديدة فى شعره ربما لا تخطر على بال محبوبته أو تمر فى خيالها والهدف من ذلك هو الوصول الى قلب محبوبته ورضـــاها فقد خطر له ذات مرة التظاهر بالصمم وعدم الســـماع حتى تكرر محبوبته الكلام فيلتذ بسماعه ويلتذ بتكراره « والمكرر يحلو » يقول :

أوهمتها صـــمما فى مســـمعى فغـــدت
تكـــرر اللفظ أحيـــانا وتبتســـــم

---

(١) الديوان : ٤٠٩ — ٤١٠ .

قبلت ما رمت من رجـــــع الكـــــلام فلا

عـــدمت لفظا به يســـتعذب الصـــمم

ونرى الحلى فى غزله قد يخالف أحيانا ما اصطلح عليه الشعراء من تشبيه القد بالغصن فيخرج على هذا المصطلح ويرى تشبيه المحبوب بالغصن فيه ظلم مبين بالمحبوب ويعلل لذلك تعليلا لطيفا حيث يرى أن الغصن لا يحسن الا بأوراقه بينما الحسن كل الحسن فى تعرية حبيبه وتجريده يقول :

يا صـــاحى الأعطـاف من سـكر الطـلى

ما بال طـــــــرفك لا يزال معربـــــــدا

وحســـام لحظـــك كامن فى غمـــده

مـا بـــاله قـد الضرائب مغمـــــدا

قاســـوك بالغصـــن الرطيب جهـــالة

تالله قـد ظـلم المشـــبه واعتـــدى

حسن الغصـــون اذا اكتســـت أوراقهـــا

ونراك احســـن مـا تكـــون مجـــردا

وهو لا يقف هنا عند حدود الصورة الفنية الجديدة ولا عند الفكرة المستنبطة أو الموروثة بل هو يشمل أيضا اللفتة الضاحكة المضحكة التى تنم عن نفس شديدة الذكاء مرهفة الحس ، يقول لائما حبيبه على أخذه البرىء بذنب المسىء فيبدع فى الصورة ايما ابداع :

أتقتص منى ان جنى الغـــــــــير ذلة

ككـــاسر دن الخـــــل ان جنت الخمر ؟

ومن أعجب الأشـــياء ان جريمـــــة
يجيء بهـــا زيـــد فيجزى بها عمـــرو[1]

والصفى هو الذى تحييه ساعة الوصال وتقتله ساعة الفراق •

ودعـــونى من قبـــل توديـــع حبى
أنـــا منـــه أحـــق بالتوديـــع

ذاك يرجى له الرجـــوع ولا يطمـــع ان
مـــت يارفـــاق رجـــوعى

ومن أجل هذا يقدم لنا صورة عجيبة تدل على تفانيه فى محبوبه فهو يضع خده على ممر نعاله ، بل هو يبذل نفسه فى سبيله الا انه يرجع ويقول : « انه لا حق له فى هذا الذل وأنه مخادع فى تلك التضحية ، لأنه يبذل شيئا لا يملكه » •

أضـــع الخـــدود على ممـــر نعـــالكم
فكأننى بنعالهـــــــــــا — أتبرك

ولقـــــد بذلت النفس الا أننى
خادعتكـــم وبذلك ما لا أمـــلك

ونشم فى هذه الأبيات رائحـــة التصوف • فالصوفية يكررون امثال هـــذا من التبـــرك والتفـــانى فى المحبـــوب لدرجـــة خدمـــة نعـــاله وكثير من الأدباء والعلماء ومنهم صفى الدين الحلى الذين أيدوه وناصروه •

يبدو ذلك فى قوله : « فكأننى بنعالها أتبرك » فقد ازدهر التصـــو وتطور تطورا كبيرا ، وطغت موجته العارمة حتى شملت بعض الســـلاطين وكثرا من الأدباء والعلمـــاء ومنهم صفى الدين الحلى أيدوه وناصروه •

---

(١) الديوان : صفحة ٥٦٥ •

والصفى مع جدة أفكاره وطرافتها اهتم بالمعاني اهتماما كبيرا يتعمق فيها ويصوغها صياغة مبتكرة جديدة ففى قصيدته الدالية :

البيض دون لحـــاظ الأعـــين الســـود
والســـمر دون قدود الخـــرد الغيـــد

يرسم ويصور فيها جمال المحيا بكل ما فيه من أعضاء ومآثر ثم ينتقل الى تصـــوير البراح والذكرى التى يحملها عن ليلة اشرق عليها الصـــبح ، ويختمها بالوفاء لا يفارقه والحنين الذى يتولاه لاحبائه حتى نهاية عمره ومعظم الصور والمعانى مستقلة وطريفة يقول من القصيدة :

من لى بعـــين غـــدت بالغنـــج ناعســـة
اجفـــــانها وكلت جفنى بتســـــــهيد
وحـــاجب فـــوقه تشـــديد طـــرته
كأنمـــا النـــون منــــه نـــون توكيـــد
وماء وجــــه غـــدا بالنـــور متقـــداً
كأن فى كل خـــــد نار أخـــــدود
ونقط خـــال اذا شـــاهدت موقعـــه
خلت الخليـــل ثوى فى نار نمـــرود
بذلت روحى الا انهــــا ثمــــن
للوصـــل منكم ولكن حســـب مجهـــودى

وقد بدت الصور تتراقص فى هذه القصيدة من بيت الى آخر ، فتبرز فى البيت الثانى من القصيدة فكرة الموت مكتملة العناصر والأجزاء ، وصورة الموت ليست مقصودة من الشاعر فى حد ذاتها وانما يراد بها معنى آخر هذا المعنى هو الانتقال الى مصاحبة المحبوبة والتمتع بحديثها والنظر الى طرفها الناعس والتمتع أيضا بلثم الخدود ورشف الثغور ثم نراه ينتقل من صورة الى صورة فيتحدث بعد ذلك عن الليلة الحالمة التى قضاها مع محبوبة ليلة الأنس التى يتمنى أن يتكرر مجيئها ويعود أحباؤها الليلة تلو الأخرى ثم

يتحرك بصـــوره ليرســم لنا لوحـــة الشرق ولعله فعل ذلك أيضـــا محاكاة لبعض الشعراء فيتجه أحيانا الى التضمين • فضمن شعرا لامرىء القيس فى قـــوله :

اذا ما رآه عاشـــــــق قال شـــــــامتا
الا انعـــم صـــــباحا أيهـــا الطلل البـــالى

فعجز البيت لامرىء القيس فى قوله :

ألا عم صـــــباحا أيهـــا الطـــلل البــــالى
وهل يعمن من كان فى العصر الخـــــــالى

وأحيانا يتجه الى القلب فقد قلب أبيات أبى تمام الذائعة :

نقل فؤادك ما اســــتطعت من الهـــــوى
مـــــــــــــــا الحب الا للحبيب الأول

كم منزل فى الأرض يعشـــــــــقه الفتى
وحنينـــــــــــه ابـــــــــدا لأول منزل

فقال الحلى :

لا حب الا للحبيب المقبـــــــــــــــل
فاصرف هـــــــــــواك عن الحبيب الأول

ودع العتيـــــــــق فللجـــديد حـــلاوة
تنســـــيك ماضى العيش بالمســـــــــتقبل

ثم يعود الى صوره الراقصة فيصور لنا ليالى الوصل :

لله ليـــــــلة أنس قلت اذ ذكـــــــرت
يا ليـــلة الوصـــــل من ذات اللمى عـــودى

والشرق قـــد حملت احشـــاؤه لهبـــا
للشـــمس فيهـــا حنـــين غـــير مولـــود

وثعلب الصـــــبح وافى فاغـــرا فمـــه
اذ قابلتـــه الثريا شـــبه عنقـــود

وكمـا اهتم بالغزل فى المرأة اهتم كذلك فى التغزل بالغلمـان ، ويبـلغ ما نظمه فى الغزل بالمذكر (ثمان وخمسين مقطوعة) وكان هذا الغزل شائعا فى عصر صفى الدين وهذا الغزل لا عاطفة فيه ، وليس فيه شىء من الجدة فى المعانى ، ولعله نظمه استجابة لبعض اخوانه أو تكملة لأغراض ديوانه حتى لا يخلو من هذا الفن وهذه الأشياء قد استحسن بعضها بعض النقاد القدامى ومنهم الجرجانى واستحسنه فى أبواب السرقات فقال : ومن لطيف السرقات ما جاء على وجه القلب وقصـد به النقض وهذا يحتاج الى انعام الفكـر وشدة البحث وحسن النظر[1] .

فقـد أخذ الحلى فى غزله من عنترة كقوله :

ولقد ذكـــرتك والســـيوف مواطـــر
كالســـــحب من وبل النجيع وطـــله

فهذا مأخوذ من قول عنترة :

ولقـد ذكـــرتك والرمـــاح نواهـــل
منى وبيض الهنـــد تقطـــــر من دمى

وأخـــذ أيضـــا من المتنبى كقوله :

---

(١) الوساطه بين المتنبى وخصومه ، ص ٢٦ تحقيق محمد أبو الفضل دار الكتب ، ١٩٥١ .

انحلتني بالصـــــدود منـــــك فلو

ترصـــــدتني المنـــــون لـم ترنى

فهو من بيت المتنبى المشهور :

كفى بجســـمي نحـــولا اننى رجـــل

لـــولا مخـــاطبتى ايـــاك لـــم ترنى

والمتنبى يستعطف سيف الدولة ويطلب شفاعته وهو الخصم والحكم :

يا أعـــدل النـــاس الا فى معـــاملتى

فيم الخصـــام وأنت الخصـــم والحكم

ولكن خصـــم الحـــلى وحكمه هو الدهر الذى فرق بينه وبين محبوبه والمعنى مأخوذ من المتنبى :

الى من المشـــتكى ان عـــز قربكـــم

مما جنى الدهـــر وهو الخصـــم والحكم

والحلى بتأثره بهؤلاء الشعراء أفاد من شعرهم الغزلى لكنه فاقهم فى تفننه فى المعانى والصور التى يدخلها على فنه فأضفى على هذا الباب جدة وطرافة وابتكارا لم نعهدها فى شعراء عصره .

الفصل الخامس

(الخمـــــريات)

الفصــــل الخــــامس

(الخمــــــــــريات)

كان شرب الخمر منتشرا على نطاق واسع بين سائر الطبقات ، وكان الناس يشربونها جهارا نهــارا دون خوف ولا مبالاة ، فلا غرابة أن رأينا الشعراء يتغنون بذكر الخمر ، ويصفونها وصفا رائعا ، سواء فى ذلك شاربوها أو واصفوها ولا غرابة أن رأينا فى اللغة العربية أكثر من مائة اسم يطلق على الخمر ، كما كان لطبيعة هذه البلاد بشــكل عام ، وكثرة الأديار والحانات والمتنزهات أثر كبير ساعد على شرب الخمر والمسكرات فى خلوات خاصة بعيدا عن أعين المتزمتين من رجال الدين وغيرهم ، أما غير المتزمتين منهم فانهم يجدون فى حديث الخمر والمجون موضوعا مستطرفا •

كتب بعضهم الى القــاضى محمــد بن عبــد الرحمن بن قريعــة البغــدادى فتيبــا وهى : « مــا يقول مولانا القــاضى أيــده الله تعــالى فى رجــل ســمى ولده « مداما » وكنــاه ابا النــدامى وسمى ابنته « الراح » وكناها أم الأفراح وسمى عبده « الشراب » وكنــاه أبا الاطراب وسمى وليدته « القهوة » وكناها « أم النشوة » أينهى عن بطالته أم يؤدب لخلاعته » ؟ ! فكتب فى الجــواب « لو بعث هذا لأبى حنيفة لجعله خليفة ، ولعقد له رايه وقاتل من تحتها من خالف رأيه ، ولو علمنا مكانه لقبلنا أركانه ، فان اتبع هذه الأسماء أفعالا وهذه الكنى استعمالا ، علمنا انه قد أحيا دولة لمجون ، وأقام لواء ابنة الزرجون فبايعناه وشايعناه ، وان تكن اسماء ســماها ماله بها من سلطان خلعنا طاعته وفرقنا جماعته ، فنحن الى امام فعال احوج منا الى امام قوال[1] •

---

(١) النواجى : حلبــة الكميت ص ١٠ مخطوطة بدار الكتب رقم ٧١٠٠

هذه هى قصة قضاتهم وفقهائهم وموقفهم من المدمنين من شعرائهم وأدبائهم . وقد أكثر شــعراء هذا العصر فى وصف مجالس الشرب وتغنوا بالكأس فى أفراحهم وأتراحهم ، وقد أخذ المجون يتطور بتطور الزمن حتى أصبح غرضا خاصا قائما بذاته فاستقل عن سائر الأغراض الأخرى وأصبحنا نجد فى نعت الخمر قصائد خاصــة بها ، وحتى صرنا نجد فى الدواوين الشعرية أبوابا فى الخمريات .

وقد ذكر أن الأسعردى الشاعر أفرد من خمرياته وهزلياته ديوانا خاصا أسماه « سلافة الزرجون فى الخلاعة والمجون »[1] وخمرية « الشــاب الظريف » الآتية تصور لنا نمطا من الحياة فى هذا العصر ، وتوضح لنا انتشار الغناء والطرب بشكل واسع جدا ، وما أكثر ما تحدث الشعراء عن المغنين والمغنيات ، والجوارى والغلمان ونلاحظ أن الشاعر فى هذه الخمرية يدعو محبوبته لترك التسبيح وشغل أناملها بالأوتار بدلا من السبح وكأنما كان يشفق على حبيبته من عدوى التصوف الذى انتشر بين نساء العصر وخمريته تعطينا صورة صادقة عن نشوء المدرسة الخمرية وما يدور فى هذا العصر من التفانى فى المرأة والخمر والمجون والطرب يقول الشاب الظريف :

ناولينى الكأس فى الصـــــــــــبح
ثـم غنينى عـــلى قـــــــــــدح
وأديرى شـــــمس وجهـــــك لى
فضــــياء الشـــمس لم يلـــح
واشــــغلى كفيــــك فى وتــر
لا تهديهــــــا الى الســـــبح
واذا اطـــــــربتنى وبـــــدا
بانتشـــــائى حـــال مفتضـــحى

---

(١) ابن تغرى بردى « المنهل الصافى » (مخطوط) جـ ٣ ص ٦٩ رقمه بدار الكتب ١١١٣ .

عانقيني باليــــــــدين كمـــــــا
يفعــــــل الأحبــــاب من فـــــرح

واذا عـــــــانقت من فــــــرح
غصــــن قد منـــــك متشــــــح

فضـــــعي أزرار طــــوقك عن
صـــــدرك الفتـــان بالملـــــح

ثـــم روحي بالأمـــان فمثـــلي
بســـــرقط لــــم يبــــح[1]

(١) ديوان الشــاب الظريف ، ص ٢٤ ، المطبعة الاهلية ، بيروت .

موازنة بينـــه وبـــين
أبى نـــواس فى الخمريات

وصـــفى الدين الحلى كان له القدح المعلى فى هذا الباب ، فقد تحدث عن الخمرة وهام بها ، وحاول أن يوجد المبررات لشرابها والى اغراء نفسه بها وقد تأثر بأبى نواس كثيرا فى خمرياته وافاد كثيرا فى خمرياته وأفاد كثيرا من شعره واقتبس من معانيه غير انه جدد فيها ورسم لها صورة تخالف الصورة التى رسمها لها النواسى ، وعلل لشربها تعليلا يغاير التعليل الذى علله أبو نواس فالنواسى يشرب الخمر فى مجون وخلاعة وتهتك وكفر ولا تحلو له بدون ذلك يقول أبو نواس :

فلا خـــير فى فتـــك بغـــير مجـــانة
ولا فى مجـــــون ليس يتبعـــه كفــــــر

فهو لا يكترث بالحلال والحرام ولا يأبه بما حرمه الدين ولكن الحلى يخـــالفه فى ذلك فهو يشربها لأنها تذهب عنه الهموم والأحزان ، ويعـــلل تعليلا يبيح له شربها ، كما ان الحلى يتركها اذا جاء رمضان اعظاما واجلالا للشهر الكريم •

قلت شهر الصيام أقبل والشرب   ولو فى دجاه عندى حرام

ولكن النواسى لا يطيق رؤية شهر رمضان ويصوره بالسجن الذى يمنعـــه من شربهـــا ويجعله كالأسير العـــانى :

منـــــع الصـــــــوم العقـــــــــارا
وزوى اللهـــــــو فغـــــــــــارا

وبعثنا فى سـجون الصـوم للهم أسـارى

وحينما يولى الصيام يفرح ويغتبط وكأنه أفرج عنه من السجن الذى صيره أسيرا فيظل يعب ليلا ونهارا •

غـير أنا سـنداري
فيـه من ليس يـدارى

نشـرب الليـل الى
الصـبح صـغارا وكبـارا[1]

وقد أفرد الحلى الخمر بابا مستقلا فى ديوانه نيف على خمسة وعشرين قصيدة عدا المقاطع العديدة والمقدمات التى افتتح بها كثيرا من قصـائده المدحية والمراثى والاوصـاف وهو الى ذلك ذواقة فى شربها ، فنـان فى تصويرها ، وتصـوير مجلسـها وتأثيرها فهى حمراء مشعشعة ، قديمة ، مسكية عسجدية ، عذراء • كما أن لها وميضـا يجلى غياهب الظلمات وقد صورها بصورة العروس التى تقلد الدر فى نحرها :

حمـراء لنورهـا وميض
يجـلى بشـعاعه الظـلام

الدر لكاسـها نطـاق
والمسـك لدنهـا ختـام

شـمطاء تتجـلى عروسـا
للدر بنحـرها عظـام

(1) ديوان ابو نواس : ص ٣٠١

وترى الحلى يكرر الصور ويلح عليها وذلك ديدنه ودأبه يردد الصور واللوحات المكرورة كلما حلاله من تشبيه القهوة باشعة الشمس أو الضياء فى الدجى أو ما شاكل ذلك من التشبيهات التى يوزعها هنا وهناك : يقول فى وصف ليلة :

وليـــلة جـــاد لى عـدل الزمـان بهـا
ولا نقيس بهـــا جـــودا ولا ذهبـا

ســـقيت من يده طـــورا ومن فمـــه
كأسى ســـــلاف تزيل الهم والكـــربا

فى جنــــة من رياض الحزن غاليـــة
يضـــاحك الزهر من نوارهـــا الســـحبا

بتنا بهـــا ليـــلة رفت شـــمائلها
كيومهـــا يســـتجد اللهـو والطـــربا

اســـقى نديمـــا بها اذ غاب ثالثنـــا
اذا شربت ويســـــــقينى اذا شربا

من قهـــوة كشـــعاع الشـــمس مشرقة
اذا جـرى الماء فيهـا اطلعت شـــهبا

شعشعتها فأضـــــاء الشرق منبلجـــا
بها وقام لهـــا الحـــرباء منتصـــبا[1]

---

(١) الديوان : ٥٠١ .

ومن أجمل خمرياته لاميته التى ضـمنها اعجازا من لامية العرب فقد وفق ايما توفيق فى اظهار الصور الحية التى تزخر بها مجالس الحلى من اللهو والشراب ، وليالى الأنس والطرب التى شدا بها شاد كأن قده الغصن المياس •

وأولها :

أجـــلك ان يســـخ الزمـــان ويبخـــل
ويعـــدل فينـــا باللقـــاء فتعـــ

الى أن يقول فى وصف ليلته :

وليلة ســعد يصـــطلى العـــود ربهـــا
سرورا وفى انائهـــا البـــدر يشـــغل

أدار بهـــا الولدان كأســـــاروية
وشـــمر منى فارط متمهـــــل

وهب لنا شـــاد حكى الغصـــن قده
الف اذا ما رعتـــه اهتـــاج أعـــزل

يجس من الأوتـــار صـــهبا كأنهـــا
خيـــوطة مارى تغـــار وتفتـــل[1]

والصفى لا يشرب الخمر الا بمجلس عامر يحفل بالمآكل والمشـارب والجوارى والغلمان والمطربين والأصدقاء ، ويلخص مجلسه فى ثمانية أشياء يجب أن يحفل بها •

أوان وســـاق غـــيروان ومطـــرب
وراح لهـــا طيب السرور مقـــارن

---

(١) مارى : اسم لفاتل الخيوط ، تغار : يحكم فتلها •

فان زرت مغنـــــــــانا تكن أنت أولا
وعبـــدك ثانيها وشـــــاد وشــــادر

وخامســـــها الرواوق والكأس ســــادس
وســــــابعها الابريق والعـــــود ثامن

هذا هو الوصف المادى لمجالس الحلى ووصف خمرياته وأما الوصف المعنوى فنراه يبين أثار الخمر والأثر الذى تتركه فى وجدان شـــاربيها فهى مؤنسة ومسلية مسرة وتكاد تكون الروح لمن يشربها وان غرة وجهها تجعل الدجى نورا والليل شهبا ، وان قطرة من كأسها تحيل صفاة الصخر الى عشب ونبـــات .

وكادت تكـــــــون الروح لا الراح كملت
قـــوى طبعها لو كان يابســـــها رطبـــا

شـــممنا شـــذاها فى الكؤوس فأســـكرت
فأنى لهـــا رشـــدا اذا اســـتعملت شربا

فلو لمعت فى الليــــــل غـــرة وجههـــا
لشـــاهدت دعم الليـــل من نورها عشـــبا

فمـــا هى الا أصــــــــــل كل مسرة
فكم روحت همـــا وكـــم فرجت كـــربا

ونراه كثيرا ما يمزج وصف الخمريات بوصف الطبيعة ومناظرها الفتانة فى السماء فيصف الظلام الدامس الذى تهتك الشموع حجبه :

وليلتنـــا شـــبيه الصـــبح نـــورا
وقد عقـــد البخـــور بهـــا ضـــبابا

كأن ظلامهـــا بالشـــــــمع فـــود
وقـــد وخط القتير بهـــا مشـــــابا[١]

ويصور الليل غلاما قد ذيله من دبر ويجرد منه شخصا ينبه الصحب الى شدو الورق فى السحر كما يتخيل الصـباح واعيا يدعو الى الصـباح ومناجيا يشدو بالناس والوتر :

هبوا فقـد قد ذيـل الليـــل من دبـر
ونبه الصحب شـــدو الورق فى الســـحر

وأقبل الصــــبح يدعـــو بالصـــباح لنا
مناجيـــا بلســـــان النـــاى والوتر

فاســـتيظوا من ثبات الســـكر وابتدروا
راحـــا تريح من الأحــــزان والفكـــــر

وخلاصة القول أن الحلى قد ابدع فى خمرياته وكان أجمل صورة وأرق ديبـــاجة وأعزب فكرة وهو ان اتهمه النقاد بالاتكـــاء على معانى الأقـــدمين وتقليدهم فقد أوتى حظا من الابتكار وحسن التصوير لم يعطه كثير من أقرانه ولداته وشعراء عصره .

---

(١) القتير : الغبار .

الفصل السادس

« الوصـــــف »

الفصـــل السـادس

« الوصـــــف »

كان لشعر الوصف نصيب وفير فى شعر العصور المتأخرة ، وقد كان وفيرا فى العصور السالفة حتى ان ابن رشيق قال فى كتابه العمدة « ان الشعر الا اقله راجع الى باب الوصف »[١] .

والوصف فى حقيقة الأمر هو عمود الشعر وعماده ، بل ان كل أغراض الشعر ترجع الى الوصف فالمدح وصف نبل الرجل وفضله والنسيب وصف النساء والحنين اليهن والشوق الى لقائهن ، والرثاء وصف محاسن الميت ، وتصوير أياديه وآثاره والهجاء وصف سوءات الهجو وتصوير نقائضه ومعايبه وهكذا نستطيع أن ندخل جميع فنون الشعر تحت الوصف وشعراء هذا العصر كأسلافهم من الشعراء لم يقصروا أو يبخلوا فى شعر الوصف ، بل ربما كانوا أكثر غزارة وأشد فيضا من السابقين ، انهم لم يتركوا شيئا الا وصفوه ، وافتنوا فى وصفه ، بل كادوا يبزون الأقدمين فى أوصافهم ، فوصفوا الطبيعة وما فيها من مباهج ومحـاسن ، وألوان وأنواع وظلال وشموس ، وزهور ورياحين وجبال وأودية ، وتضاريس ومعالم وكثيرا ما ينفخ الشاعر الروح فى مظاهر الطبيعة فيجعلها تغنى أو ترقص ، أو تزهو أو تختال ، أو تسرق الخطو أو تغار كأنما هى كائنات حية تشعر كما يشعر كل ذى روح .

وعملية التشخيص هذه عرفها القدماء وسار عليها المحدثون فالحلى يشخص الربيـع فيقول :

خـلع الربيع على غصـون البـان

حـللا فواضـلها على الكثبـان

---

(١) ارجع الى كتاب العمدة : ص ٢١١ ، بيروت .

ونمت فـروع الدوح حتى صافحت
كفل الكثيب ذوائب الأغصان

وتتوجت هام الغصون وضرجت
خد الرياض شقائق النعمان

وتنوعت بسط الرياض فشكلها
متباين الأشكال والألوان

وقد أفتن الحلى فى وصف الأزهار وعقد بينهما المقارنات وأدار المحاورات فنراه يعقد حوارا بين النرجس والورد والسوسن ويجعل كلا منها يفتخر بحسنه ولونه وجرد منها أشخاصا متحركين فالزنبق ينشر أعلامه ، والورد يقهقه هازئا ثم يعود فيجعل الزنبق ممتعضا من ضحك الورد عليه وذلك فى حوار رقيق جميل :

قد نشر الزنبق أعلامه
وقال كل الزهر فى خدمتى

لو لم أكن فى الحسن سلطانه
ما دفعت من دونهم رايتى

فقهقه الورد به هازئا
وقال ما تحذر من سطوتى

وقال للسوسن ، ماذا الذى
يقوله الأشيب فى حضرتى

وامتعض الزنبق من قوله
وقال للأزهار يا عصبتى

يكون هذا الجيش بى محدقا
ويضحك الورد على شيبتى

وأنكر بعض النقاد وصف صفى الدين الحلى لفروع الدوح النامية الممتدة على الهضاب باليد تصافح كفلا وذلك فى قوله :

ونمت فـــروع الـدوح حتى صـــافحت
كفــــل الكثيب ذوائب الأغصـــــان

وقالوا : ان عهدنا باليد تصافح يدا لا كفلا ، وقالوا ان وصف الحلى فيه شىء من الخطأ ، ومجافاة للذوق العربى(١) .

وأنا أخالفه فى هذا المذهب وأرى أن هذا التعبير سائغ وأن الشاعر نزل الكثيب بمنزلة اليد التى تصافح وأساليب العرب فيها كثير من ذلك وقد ظهر فى وصف الحلى ملامح الابتداع وهذا وان تجلى فى أغلب فنونه لكنه فى وصفه أتم نضجا وأوفى جلاء وادعى الى الأعجاب والتقدير ، فقد اعتمد فيه على الابتكار والاختراع ، وسبيله الى القلوب والعقول أداء مبدع وعرض مفتن والصفى كان حساسا جدا يتفاعل مع من حوله فى سرعة فائقة فاذا رأى جمالا اندمج معه وعاش فيه ، واتصل الجمال بوجدانه وفاض على شعوره ، وبدأ فى تحليل مشاعره وأحاسيسه منفعلا انفعالا صادقا فاذا ما تم انفعاله عبر عن ذلك بشعر جميل رتب فيه المعانى ونمق الأساليب ، ونسق الصـــور وتخير الألفاظ ، وقد وصف كل شىء جميل وكل ما وقعت عليه عينه ، وصف الطبيعة بأشجارها وأنهارها ووديانها ورياضها وأثمارها وأزهارها ونسيمها وأطيارها ولم يدع شيئا الا تغلغل الى دقائق صفاته وغوامض ميزاته فحين وصف الحله اهتز قلبه بحبها وقد شبهها بالحصن المكين وشبه سورها بطور ســـيناء يقول :

ما حــــــــــــلة ابن دبيس
الا كحصــــــــــن حصــــــــين

---

(١) انظر مطالعات فى الشـــعر المملوكى والعثمـــانى صفحة ١٦٠ دار الشروق القاهرة ١٩٧٢ .

للقلب فيهـــــا قـــرار

وقـــرة للعيـــــون

ان أصبح المـــاء غـــورا

جـــاءت بمـــاء معـــين

وحولهـــا ســور طـــين

كأنه طـــور ســـين

وعلى طريقته التحريرية وصف وادى الغرس فصور الشـمس فيه بالفطيمة كما شبه الظل بالكهل والنسيم بالغلام وقد أعجب بظلاله الوارفة وفتن بهوائه العليل ونسيمه البليل :

لله وادى الغرس حـــين طلقتـــه

زمنـــا كان العيش فيـــه منـــام

واد حـــريرى الرياض فكـــم به

من حـــارث يغـــدو به وهمـــام

ممتـــد أودية الظـــلال فثغـــره

باكى العيـــون وثغـــره بســـام

فالشـــمس فيـــه مـدى النهـار فطيمـة

والظـــل كهـــل والنســـيم غـــلام

وإذا وصـف النرجس لم يرض بتشـبيه العيون به واعتبر ذلك خطأ وقارن بين العين وزهرة النرجس :

أمشـــبه الطـــرف الكحيـــل بنرجس

بعـــد القيـــاس وذاك من أضـــداده

نافـــاه فى تدويره وصـــــفاره
وجحـــوظ مقلتـــه وفـــرط سهاده

فاعجب لزهـــر « الباقـــلاء » وقـد بدا
فـــوق القضـــيب يميس فى أبـــراده

يحكى عيـــون العـــين فى تلويفـــه
وفتـــوره وبياضـــه وســـــواده

والصفى كما بينا يهتم بتجسيم الصورة وتشخيصها وابرازها أمام السامعين واضحة المعانى حية ملموسة فزهر النرجس له عيون محدقة ووجوه ناظرة :

وللنرجس الغض مـا بيننـــــــا
وجـــوه بحضرتنـــا ناضرة

كان تصـــدق أزهـــارها
عيـــون الى ربهـــا ناضرة

وقد أسرف الشاعر فى ذكر اسماء الأزهار والورود ، وعدد لها مسميات كثيرة وقد حاول بعض النقاد ان يوازن بين ما ذكره الحلى من هذه الورود وبين ما جاء صاحب كتاب « البديع فى وصف الربيع » من أسماء للأنوار فاذا بالحلى يأتى باثنين وعشرين اسما فى شعره من أربعة وعشرين وردت فى كتاب الحميرى الذى استقصى فيه اسماء الورود والأزهار عند الشعراء العرب وقد وجد الموازن ان النوعين الذين لم يذكرهما الحلى هما : « الجلنار والخرم » [1].

فلقد اغرم الحلى بالأزهار والورود وشغف بترديد اسمائها فى شعره

---

(١) البديع فى وصف الربيع لابى الوليد الحميرى المطبعة الاقتصادية بالرباط ١٩٤٠ صفحة ٩٠.

وتشبيهها بتشبيهات مختلفة تناسبها من الطبيعة وقد جاء بستة ورود فى بيت وشبهها بستة فى بيت آخر :

زنبـــق بين قضـــب آس وبـــان
وأقـــــاح ونرجس وورود
كلجـــين وعـــــارض وقـــوام
وثغـــور وأعـــين وخـــدود

وخلاصة القول أن الحلى فى وصفه للطبيعة ومجالس الأنس والشراب رقيق سهل بعيد عن التعقيد والاسراف فى المحسنات البديعية وكان لوصفه ميزتان عظيمتان :

احداهما دقة النظر وصدق المشاهدة والأخرى قوة الابتكار والتخيل فقد كان يدرك بالأولى جزئيات الأمور ونواحى المناظر التى تخفى على غير الموهوب ، ثم يتولى خياله ما أدركه فيحكم نسجه ويضفى عليه الوانه ويزيد فوقه نقوشه[1] .

---

(١) انظر ضياء الريس « صفى الدين الحلى » مجلة الرسالة القاهرية العدد ٢٩ سنة ١٩٣٢ ص ١٤٦ .

الفصل السابع

الطــــــــرديات

الفصل السابع

الطرديات

ان البيئة والظروف التى عاشها الحلى قد ساعدته على أن يبدع فى فن الطرديات ، فقد نشأ الحلى نشأة بدوية وتربى فى جو فروسى وحذق أنواع الفروسية منذ صباه وخاض المعارك فى ريان شبابه • أضف الى ذلك اتصاله بملوك زمانه وخاصة المؤيد صاحب حماه الذى كان مولعا بالصيد والرحلات وكان يرافقه الحلى فى جميع رحلاته ، من أجل ذلك أتى بأشعار فى هذا الباب وصف بها كل ما شاهده وصفا دقيقا يدل على خبرته العظيمة فى هذا المجال ومما يستشهد على ذلك وصفه لجميع أنواع الصيد التى شاهدها من صقر وباز وفهد وكراكى وكان مهتما اهتماما كبيرا بهذا النوع الأخير لكثرة ما شاهد واستمتع بصيده فقد تحدث عن الكراكى الوافدة الى العراق وقد ذكرها دجلة بمائه التيار ، والحلة بمروجها الخضراء فأنسته مواطنه الأولى التى طالما قد زق فيها وقمط :

أما ترى الكركى فى الجو وقد
نغم فى أفق السماء ولغط

أنساه حب دجلة وطيبها
مواطنا قد زق فيها وقمط

ويرحب بها ترحيبا حارا ينم عن حبه لها وكأن الدافع له الى صيدها الاستئناس بها ومصاحبتها أكثر من تشوفه الى التمتع بأكل لحمها انظر الى تصويره لها تصويرا خلابا وهى تحلق وقت الضحى كعقد منظوم أو تدور كالرحى فى شكل دائرات :

أهــــلا بهــــا قـــوادما رواحـــــــلا
تطـــوى الفــــلا وتقطع المراحـــــلا

هـــذه الكراكى حائمـــات فى الضـــحى
منظـــــــــومة أو دائـــــرات كالرحى

يا حســــــنها قادمة فى وقتهــــــــا
تغــــرى الرمــــــاة بجميــــل نعتهــــا

اذا اســــتوت طــــائرة فى ســـــمتها
نرشـــــــقها ببنــــدق من تحتهـــــا

ونلاحظ أن شاعرنا الحلى لا يأتى باى صفات لما يشـــاهد من أنواع الصيد وانما يصفها بالصفات التى يشترطها العرب ، فقد اشترط العرب مثلا فى كلب الصــيد كما يقول الجاحظ[1] « ان يكون صــغير الرأس طويل العنق ، بارز الحدقة واسع الشدقين نائى الجبهة عريضها .

كما يكون قصير اليدين طويل الرجلين لأنه اذا كان كذلك كان أسرع فى الصعود بمنزلة الأرنب ولا يكاد يلحق الأرانب الا كل كلب قصير اليدين طويل الرجلين يقول الحلى :

وأهـــرت من الكـــلاب أخطـــــــل
أصفر مصـــقول الاهـــاب أشـــعل[2]

أعصــــم مثـــل الفـــرس المحجــــل
يخـــال مرحوضـــــا وان لم يغســـل[3]

(١) الحيوان للجاحظ جزء ٢ صفحة ١٥ : ١٦ .
(٢) الأخطل : طويل الاذنين ، والاشـــعل من كان فى ذنبـــه أو ناصيته بيـــاض .
(٣) الاعصم ما كان فى ذراعيه بياض ، المرحوض : المغسول .

مختصر الشـــــلو ، ثقيـــــل المحمـــل
منفســــــح الهــــــامة ناتى المقـــل
اذ أنه كالســـــــوســـــن المهــــــدل
كأن فـــوق عنقـــــــه المعتـــــــــدل
هامــة فهـــد فى صـــــماخى فرعــــل
منســـــرح الزور فســـــيح الكلكل[١]
منهضـــــــم الخصــر عــريض الكفـــل
ذو أيطـــــــل حــــــال ومتن ممتلى[٢]
خضـــيب أعــلى العضــب فحــل الأســفل
قصـــير عظـــم الســـــاعد المفتـــل
مقصـــر الأيـــدى طويـــل الأرجـــل
مزدحـــم الأظفـــــار ثبت العضـــــــل
ذى ذنب ســـــبط قصـــــير أفتـــل
أســـــلس من دفتـــــه كالمغـــــزل
كثـــير تكـــرار نـــزاع الأحبـــل
يبيت غضـــــــبان اذا لـــم يرســـــل

ولا ننسى وصفه للاقواس فقد امتاز بالدقة والتخيل المحلق للاقواس التى تستعمل فى الرماية :

فقد صورها فى صور خلابة وأخيلة رشيقة فالأقواس مدمجة وهى وان كانت معوجة فان فىّ هذا الاعوجاج سر جمالها وقد شبهها بالأهلة وشبه

(١) الفرعل : ولد الضبع .
(٢) الابطيل : الخاصرة .

ابراجها بالحوامل وهى ذات كبد ينطلق منها السهم الى الاجسام الصغيرة الطـائرة يقول من موشحته :

فقـم بنـا ان الصـبا عـون الفتى
ولا تقـل أنى وكيف ومتـى
ان الأمـانى لـم تـزل كواذبا

ثم يصـف الأقواس :

بمدمجـات زانهـا ادماجهـا
معوجـات حسنها اعوجاجهـا
أهـلة اكفهـا ابراجهـا
حوامـل اذا دنانتـاجها
تقـذف من اكبـادها كواكبـا

ويرى بعض النقاد ان الحلى لم يأت بجـديد ويقولون « ان معظم هذه الصور سـبقه اليها الشـعراء العباسـيون كأبى نواس والمتأخرون منهم كالسرى الرفاء والصـنوبرى ومهيـار الديلمى[1] :

اذ كان لأبى نواس القدح المعلى فى هذا الفن لأنه قد لعب بالكلاب زمانا وعرف ما لا تعرفه الاعـراب[2] ففى ديوانه أربعون ارجـوزة فى الطرديات وصف فيها الحيوانات المختلفة وصفا دقيقا جميلا وقد سار على نهجه صفى الدين الحلى وتتبع خطاه وأفاد منـه .

غير أننا لا ننكر ان صفى الدين أفاد من الشعراء القدامى ولا سيما من أستاذه أبى نواس امام هذا الفن ورائده ويبدو التأثر واضحا لدى

---

(١) ارجع الى كتاب الوصف سلسلة فنون الأدب العربى سامى الدهان ص ٧٣ : ٧٤ دار المعارف بمصر .

(٢) الحيوان للجاحظ جـ ٢ ص ١٠ .

الحلى فقد نظم الحلى فى وصف الفهد حينما ينقض على فريسته فيخاتلها ثم يفاجئها منقضا عليها .

فخـــاتل الســـرب بغـــير وقض
منخفضـــا للختـــل أى خفض

مصـــافحا بالبطن ظهـــر الأرض
يجســـــها بالكف جس النبض

حتى اذا امكن قـــــرب البعض
عاجلهـــا كالكـــوكب المنقض

فعـــانق الأكبـــر عنـــد النهض
عنـــاق ذى حب لـــرب بغض

فهده المقطوعة تسرى فيهـا روح أبو نواس الذى يقول فى الغرض نفســـه :

فجـــاء يزجيـــه على ســـمنده
اصـــفر احـــوى بـــين بـــين ورده

وامتـــد للنـــاظر فى مرتـــده
كوكب عفـــريت هـــوى لعـــده

كما انطـــوى العـــاقد من ذى عقـــده
خمســـين عـــاما بيـــدى معتـــده

حتى احتـــوى العـــين ولما يـــرده
فنحن أضياف حســـامى غمـــده

فيمـــا اشـــتهينا من ذوات طـــرده[1]

---

(١) ديوان ابو نواس ص ٢٠٦ المطبعة العمومية بغداد .

لكن طريقة الصفى تختلف عن طريقة أستاذه ولكل وجهة فلم ينظم أبو نواس غير الأراجيز فى حين أن الصفى نظم فى غيرها من أنواع الشعر كالمسمطات التى يقول فيها :

فقـــم بنـــا مبتكـــرا يا صـــــاحبى
نقضى بأيـــــام الصـــــبا مآربا
ولا تكـــن تفكـــر فى العـــواقب
وخـــل خـــلانى ودع أقاربى

ويقول منها :

فلـــو شـــهدت طـــيرنا فيمن رمى
وجيشــــه من جمعنـــا قـد هـــزما
وبندق الصـــحب اليـــه قد ســـما
عجبت من راق الى جـــــو الســـما
أرســـلت الأرض عليه حاصـــبا[1]

وشعر الصفى أرق ديباجة وأسلس عبــارة من أبى نواس فى هذا فانا نلحظ امتلاء طرديات أبى نواس بالألفاظ الغريبة والتراكيب الحوشيه

وقد خلت طرديات الصـــفى من ذلك ومجمل القول أن طرديـــات الصفى الحلى اتسمت بالصدق والاعتماد على المشاهدة ولا سيما انه صديق صديق الملوك الذى ارتحل معهم وصاحبهم فى طردياتهم وصيدهم فترات لذا كانت أشعاره فى هذا الفن تعبر عن الشعور الصادق والملاحظة الدقيقة التى تعتمد على الذوق الحساس والخيال المرهف ، والعبقرية النابهة .

وهناك أغراض أخرى كتب فيها صفى الدين فقد كان لا يريد أن يخلو

(١) الديوان : ٢٤٥ : ٢٤٩ .

ديوانه من فنون الشعر المختلفة فقد قال فى الشكوى والعتاب وقال فى شعر الهجاء وهى عبارة عن مقطوعات صغيرة نظمها بناء على اقتراح بعض أصحابه ويستعمل فى هذا الهجاء الصور السريعة الخاطفة والفكاهة العابرة والسخرية اللاذعة وهناك شعر التصوف والزهد ويدعو فيه الى التوبة وعمل الخير وهناك شعر الأدب والحكمة وشعر النوادر المختلفة والملح الظريفة والى جانب ذلك كله هناك أغراض أخرى كقبول الهدايا والالغاز .

ويكفى من القلادة ما أحاط بالعنق .

وثمت فنون استحدثها سنتحدث عنها فى الفصل الآتى ونبين سبقه فى ابتداع بعضها ، وحوزه قصب السبق فيها .

الفصل الثامن

الفنون المستحدثة وابتداع الحلى

الفصــــل الثــــامن

الفنون المســـتحدثة وابتداع الحـــلى

شهد هذا العصر تطورا كبيرا فى مجرى الحياة الأدبية ، واستحدث الشعراء أنواعا جديدة من فنون الشعر مثل الموشحات والمسمطات والزجل والمواليا وغيرها الا ان شاعرنا الحلى رغم ظاهرة التقليد فى بعض شعره غير أنه استطاع بثقافته الواسعة ، وتجاربه العديدة مع الحياة ومعايشته لكتب الشعر والأدب ، استطاع ان يكون على طرف من الابداع فى بعض جوانب الاوزان الشعرية والموضوع والمعنى والأسلوب •

فمن هذا ابتكاره ضربا جـــديدا فى الموشـــحات اســـماه الموشـــح المضمن[1] وقد قال الحلى نفسه عن هذا الموشح بأنه من مخترعاته التى لم يسبق اليها وذلك حينما ضمن ابياتا لأبى نواس فقال :

وحق الهـــوى مـــا حلت يومـــا عن الهـــوى
ولكن نجمـــى فى المحبـــــة قـــد هـــوى

وما كنت ارجـــو وصـــــل من قتلتى نـــوى
واضنى فـــــــؤادى بالقطيعـــــة والنـــوى

ليس فى الهـــوى عجب	ان اصـــــابنى النصـــب
حـــــامل الهـــوى تعب	يســـــــتفزه الطـــــرب

فالبيتـــان الأخـــيران لأبى نواس

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ٨ — ٥٨٠ وتاريخ آداب العرب للرافعى ج ٣ ص ٦٧ وتاريخ آداب اللغة العربية ٣ : ١٣٩ •

ومن اطرف مبتكرات الصفى فى هذا الباب ما سماه ايضا « تضمين البيت » وهو تضمينه لمقصورة ابن دريد المشهور التى يقول فى مطلعها :

يا ظبية اشبه شىء بالمها
ترعى الخزامى بين اشجار النقا

أما ترى رأسى حاكى لونه
طرة صبح تحت اذيال الدجى(١)

فقد نظم الصفي قصيدة يشكر بها انعام ولدى الملك المنصور نجم الدين غازى ابن ارتق وهما « ناصر الدين محمود » و « عماد الدين علي » اذ قدما له جوادا أصيلا فجعل نصف ابيات هذه القصيدة من مقصورة ابن دريد هذه ، وبالرغم من أن قصيدة الصفى مقصورة أيضا الا أنه لم ينظمها على نفس وزن قصيدة ابن دريد التى نظمها فى تام الرجز « مستفعلن مستفعلن مستفعلن » فقد نظم الصفى قصيدته فى مجزوء الرجز « مستفعلن مستفعلن » ومع هذا فان الصفى استطاع أن يختار ابياتا لابن دريد تتوفر فيها القافية التى يحتاجها بعد حذف ما يزيد عن الوزن الذى تتطلبه قصيدته فكان يأخذ ثلثى بيت ابن دريد ثم يأتى ببيته هو ثم يردفه بثلثى بيت آخر لابن دريد ثم يجىء ببيت له وهكذا حتى كانت القصيدة ثلاثة وثلاثين بيتا سبعة عشر منها لابن دريد وستة عشر للصفي وهي على النحو التالى :

برق المشيب قد أضا
بعارض مثل الأضا

يشبه فى اشتعاله
« بالنار فى جزل الغضا »

« واتخذ الشهيد عيني مألفا لما جفا »

(١) شرح مقصورة ابن دريد ص ٢ الهند ١٣٤٤ .

وكنت ذا بـــأس فمـــذ عـــاندنى صـــرف القضـــا

رضيت قسرا وعلى القسر رضا من كان ذا

لى اسوة فى ابن الزبير اذ أبى حمـل الأذى

وابن الأشج القيل ساق نفســه الى الردى

وهكذا جـــد أبو الخـــير لادراك المنى

وقد ســما قبلى يزيد طـالبا شـــأو العلى

وقد رمى عمرو بســـهم كيده قلب العـدا

وقد اختتم القصيدة ببيتين من شعر ابن دريد :

فان أعش صـاحبت دهرى عالما بما أنطوى

وان امت فكل شىء بــــلغ الحـــد انتهى

وقد اخترع الحلى تضمين التجزئة كما قال الأستاذ عبد الله الاذكاوى الذى قال انه من مخترعات الحلى[1] واطلقه على تضمين البيت وهو ان يلائم بين قصيدتين لشاعرين فى المعنى والوزن كما فعل مع قصيدتى المتنبى والطغرائى ولاءم بين معنييهما فى واحد وعشرين بيتا ولم يضف اليهـا من عنده سوى صدرى المطلع والختام فقال :

قـل للملى الذى قـد نـام عن ســـهرى

ومن بجســمى وحـالى عنده ســـقم

تنـــام عنى وعين النجـــم ســـاهرة

واحـــر قلبـــاه ممن قلبـــه شـــبم

فصدر البيت الثانى للطغرائى ، وعجزه للمتنبى كما طـرق الصفى فنـا جديدا فى الموشح وهو « الموشح المجنح » وقد سمى بهذا الاسم

(١) انظر الدر الثمين فى محـاسن التضمين ٨٣ مخطوط بـدار الكتب المصرية رقم ٨٢ بلاغة تيمور .

لأنه يلتزم فيه اتفاق قافيتى الجزءين الثانى والرابع من أبيات الموشحة كلها ، هذا بالاضافة الى اتفاق هذه القوافى مع الأقفال ، وبذلك يكون للموشح قافيتان قافية للأقفال ، وقافية للأبيات كما فى قول الصفى :

عـزمت يـا متلفى على الضـرر
واطـول خـوفى عليـك واحـذرى

يـؤيسنى مـن لقـاك قولهـم
بأنـه لا رجـوع للقمـر

تمهـل مضـنى جفـاك
تحمـل ذبـت فى هـواك

يا من حكى الظـبى فى تلفتـه
وفاقـه بالـدلال والخفـر

اتلفتـنى بالصـدود معتديا
فـذل عـزى وذل مصـطبرى

تدلـل مهجـتى فـداك
تمهـل بعض ذا كفـاك

وهذا الموشح يعتمد على اتفاق قافية الاقفال ، واتفاق قافية الأبيات ولذلك سمى بالمجنح قال صاحب اللسان أجنح الرجل فى مقعده اذا انكب على يـد واحـدة[١] .

وقد افتتن الحلى بالموشح افتتانا عظيما — وأحبه حبـا جما ففى ديوانه اثنتا عشرة موشحه مختلفة الأسماط والأغصان ، متنوعة القوافى والأوزان ، متباينة المقاصد والأغراض فى المديح والغزل والنسيب وغيرها .

ولغة موشحاته عذبة فصيحة سهلة موسيقية الألفاظ حسنة الاتساق جميـلة الجـرس .

(١) لسان العرب مادة جنح .

وكان لا يكاد يسمع بموشحة نالت حظا من الشهرة الا وعارضها فقد عارض موشحة « غيلان المصرى » التى يقول فيها :

شربنـــا ســـلافا بـــلا آنيـــه
فـــلا تجعلوا عينهـــا آنيـــه

وقال الصفى وقد التزم بتجنيس القلب :

لنـــا نشـــوة فى الدجى ناشـــية
بادراكهـــا اصـــلحت شـــانيه

تـــرى ظلهـــا فى الضـــحى والمقيـــل
أشـــد وطـــاء وأقـــوم قيـــل

والقت عـــلى الفن قـــولا ثقيـــل
فكانت لانفســـــنا هـــادية
ولكنهـــا للعـــدى داهيـــة

فهناك « ناشيه » مقلوب « شانية » وهنـا هادية مقلوب « داهيه » ومن موشحاته الجميلة موشحته بعنوان « اعـلام الهدى » خلط فيها بين المدح والشعر الخمرى ، ولم يسر فيها على أسلوب محدد بل انساق على هواه ولعل السبب هو الاقتراح الذى بدا من السلطان المنصور نجم الدين فحققه الحلى ، يقول فى موشحته :

شق جنب الليـــل عن نحـــر الصـــباح
أيهـــا الســـاقون

وبـــدا للطـــل فى جيـــد الأقـــاح
لـــؤلـــؤ مكنـــون

ودعـــا للـــذيذ الاصـــطباح
طـــائر ميمـــون

فأخضب المنـــزل مـن نحـــر الدنــــان
بـــــــــدم الزرجـــــــون
تتـــلقى دمهـــا حـــور الجنـــان
فى صـــــحاف جـــــــون(١)

والملاحظ اشتمال الموشحة على تسعة أبيات وتسعة اقفال مما لم يعرف فى الموشحات الاندلسية وهذا يخالف ما قاله ابن خلدون من أن عدد أبيات الموشـــحة أكثر ما تنتهى الى سبعة(٢) .

ونلحظ أن أكثر موشـــحاته هى فى المديـــح والشـــكر والتهنئـــة بينمـــا موشـــحاته الأخـــرى « القـــرعاء » نـــرى ان معظمهـــا غـــير متقيـــد بمـــا تعـــارف عليـــه عروضـــيو الموشـــح فى الأنـــدلس كما بينـــا سابقا وقد تميـــزت بســـهولة اللفظ ورقة الديبـــاجة ويبـــدو فيها تأثره بأسلوب عصره فى الانصراف الى البديع ومحسناته ، ولا سيما انجناس على اختلاف أنواعه مع بعض التعقيد أحيانا نتيجة التقليد والتضمين أو النظم الخاضع لاقتراح معين بـــلا تجربة أو رغبة مثال ذلك موشحته « بى ظبى حمى » التى نظمهـــا بنـــاء على توجيـــه المؤيد ســـلطان حماه واقتراحه ومنهـــا : —

كم خـــود غـــدت وهى فى غـــرامى به مثلى
تلحـــانى لعقبى وتـــزرى على عقـــــلى
قالـ ت : لا تســـائل رب الجمـــال عن الفعل
لو ان الليـــالى تجـــود لى منـــه بالوصـــل
كان نترك عتـــــــابه ونعمل غـــــــير ذا الفن
وذاك الذى بينـــــــا فى الوســــــط يدفن(٣)

---

(١) الديوان : ١٢٥ .
(٢) المقدمة : ص ٤٥٧ ، المطبعة المصرية .
(٣) الديوان : ٤٥٩ .

فتشاهد كيف شاكل الحلي بين الألفاظ والموسيقى والقواعد التوشيحية، فجاءت غاية في التعقيد والاستثقال ، وفي رأيي ان كل هذه الأوزان خارجة عن الأوزان العربية الأصلية فهي قريبة الشعر بما يسمى بالشعر الحر في عصرنا .

وتجمع موشحة « رب العيون القواتل » بين الرقة والغنائية والتقليد — أو المعارضة — والاباحية والخرجة الزجلية ، وقد نظمها — معارضا لموشح الشاعر الأندلسي أبي بكر بن بقي (٥٤٠هـ) وتفنن في نظمها فكان للحوار نصيب وافر فيها ، وللمعلنى استقلال في مقاطعها ومنها هذا المقطع الذي يقطر اباحية وغنائية في الوقت نفسه .

قفـل / امـــلا الكـأس بالراح ام لا

قـلت حســبى ريقـك العـذب راحـا

بيت / قـــال لي في العتب والليـــل هـــــادى

ويـــــدى تدنيــــه نحـــــو وســـادى

حـــلت مـــا بيـــنى و بــــين رقـــادى

قفـل / جاعـلا يمنـاك للســـاق حجـلا

ولليـــد اليسرى لخصرى وشـــاحا[1]

ومن النادر أن تجد له موشحة تخلو من الموسيقى والسهولة والغنائية الشعرية المتجلية في الأغراض الشخصية للشاعر من غزل وأوصاف طبيعية وما شـابه ذلك .

وكما ابتدع في الموشحات فانه ابتدع ايضا في المسمطات والمسمطة قصيدة تبدأ ببيت مصرع ثم بعده أربعة « شطرات » على غير قافية البيت

---

(١) الديوان ٤٦٠ — ٤٦١ .

الأول ويليها قسم خامس تتفق قافيته مع قافية البيت الأول الذى بدأت القصيدة به وهكذا الى آخر القصيدة مثال ذلك قول امرىء القيس :

توهمت من هند معالم أطلال
عفاهن طول الدهر فى الزمن الخالى
مرابع من هند خلت ومصائف
يصيح بمغناها صدى وعوازف
وغيرها هوج الرياح العواصف
وكل مسف ثم آخر رادف
بأسحم من نور السماكين هطال

والصفى لم يتبع طريقة التخميس المعروفة فى قصيدته :

من عاشق نناء هواه دان
ناطق دمع صامت اللسان
موثق قلب مطلق الجثمان
معذب بالصد والهجران
طليق دمع قلبه فى اسر

من غير ذنب كسبت يداه
غير هوى نمت به عيناه
غير هوى انمت به عيناه
شوقا الى رؤية من أشقاه
كأنما عافاه من أبلاه
اذ كان اصل نفعه والضر

وقد أضاف الشطر الخامس فى كل جزء من هذه المسمطة وذلك لأن القصيدة مربعة الأجزاء وبذلك يكون هو صاحب الأشطر الخامسة ، والقافية فى هذه القصيدة .

وقد خمس أبيات « محى الدين بن زيلاق » التى مطلعها :

بعثت لنـا من سـحر مقلتك الوسـنا

سـهادا يـذود النـوم أن يألف الجفنـا

وخمس الحلى أربع قصائد فى الحماسة اذ خمس قصـيدة السموأل الحماسية ومطلعهـا :

اذا المرء لم يدنس من اللـؤم غرضـه

فكـل رواء يرتديـه جميـل

فكـم من فتى ضـاقت عن الرزق أرضـه

وطـول العـدا رحب لديـه وعرضـه

ولم يبـل سربال الدجى فيـه ركضـه

(اذا المـرء لم يدنس من اللؤم عرضـه)

فكـل رداء يرتديـه جميـل

وخمس قصـيدة قطرى بن الفجـاءة التى مطلعهـا :

أقـول لهـا وقـد طـارت شـعاعا

من الأبطـال ويحـك لا تـراعى

فقـال :

ولـما مـدت الاعداء باعا وراع النـاس كرهم سراعا

بـرزت وقـد حسـرت لهـا القنـاعا

« اقول لها وقـد طـارت شـعاعا »

« من الأبطـال ويحـك لا تـراعى »

وخمس الصـفى كذلك فاتحـة الحماسـة وهى :

لو كنت من مازن لم تسـتبح ابـلى

بنـو اللقيطـة من ذهـل بن شـيبانا

فقال : يا للحماســـة ضاقت بينكم حيــلى
وضـــاق حقى بين العـــذر والعـــذل

فقلت : مـع قلة الانصـــال والخـــول
لـــو كنت من مـــازن لـــم تســـتبح ابلى

بنو اللقيطـــة من ذهـــل بن شـــيبانا

والصفى فى هذه القصائد لا يبعد عن روح الشاعر فى المعنى والتعبير والاحساس والعاطفة ، لأنه كان يختار القصائد التى يرى أنها تعبر عن احساســـه فى تخميســـه لقصـــيدة السموأل يقول :

وعصبة غـــدر ارغمتهـــا جـــدودنا
فبـات ومنهـــا ضـــدنا وحســـودنا

اذا عجـــزت عن فعـــل كيـد يكيدنا
(تعـــيرنا انا قليـــل عـــديدنا)

(فقلت لهـــا : ان الكـــرام قليـــل)
يـــوازى الجبـــال الراسـيات وقـارنا

فبـــات ومنهـــا ضـــدنا وحســـودنا
ويأمن من صـــرف الزمـــان جـوارنا

(وما ضـــرنا انـــا قليـــل وجـــارنا)
(عـــزيز وجـــار الأكثرين قليـــل)

ولا شك ان الروح فى هذه الأبيـــات واحدة عند الصفى والسموأل وأن التعبير والأسلوب وكل شىء لا يختلف فى هذه الأبيـــات الأصلية عما فى التخميس ، حتى لنكـــاد نحسبها لشـــاء رواحـــد .

كما جدد الصفى أيضا فى الزجل والمواليا والكان كان والقوما وغيرها من الفنون وصفى الدين لم تكن تنقصـــه المقدرة على التجـــديد وابتداع

الأساليب وابتكار الأغراض مع روعة تصوير معانيه وخيالاته ثم اليس هو السابق الى ابتكار البديعيات فهو ناظم أول بديعية جمعت أنواع البديع كلها ويستغنى بها البليغ عن مطالعة كثير من كتب البلاغة ومن أشعاره البديعية مارق وراق وحلا فى المذاق فمن جناسه :

حديث الناس اكثره محال
ولكن للعدى فيه مجال

ومن طباقه :

الوجه منك عن الصواب يضلنى
واذا ضللت فانه يهدينى
وتميتنى الألحاظ منك بنظرة
واذا أردت بنظرة تحيينى

ومن تضميناته :

زوج الماء بابنه العود
فانجلت فى قلائد وعقود
قتلت بالمزاح ظلما فقالت
كم قتيل كما قتلت شهيد

ومن اقتباساته :

قلوبنا مودعة عندكم
أمانة يعجز عن حملها
ان لم تصونوها باحسانكم
« ادوا الأمانات الى اهلها »

وكما جدد صفى الدين الحلى فى بديعياته وأغنى الناس بالرجوع الى

كثير من الكتب البلاغية بقصيدته « الكافية » فى مدح الرسول الكريم فقد جدد ايضـــا فى الموضوعات والأســـاليب ، وخرج عن مألوف عصره وطرق موضوعات جـــديدة ، ومن موضوعاته الطريفـــة التى تدل على ذهن حى ومخيلة خصبة ما جاء فى بعض قصائد المدح من اجازته لممدوحه رواية شعره ونثره الى غير ذلك من الابتكارات الجديدة التى أضفت على شعره الجدة والطلاوة والروعة والحلاوة ومهما كتبنا عن ذلك فسيعجز البيـــان عن التعبير ويكفى من القلادة ما أحاط بالعنق .

أهم المراجـــع

١ — ديوان صفى الدين الحلى :بـيروت ١٩٦٧ .

٢ — معجـــم البـــلدان :ليـاقوت ، بـيروت ١٩٥١ .

٣ — رياض العلمـــــاء :بـيروت ١٩٥٦ .

٤ — الحصـــون المنيعـــة :على كاشف الغطاء ، بيروت ١٩٧١ .

٥ — تاريخ آداب اللغة العربية :جرجى زيدان ، دار الهلال ، مصر ، ١٩٦١ .

٦ — تاريـخ الأدب العـــربى :أحمد حسن الزيات ، دار نهضة مصر ، سنـــة ١٩٧٧ .

٧ — الاعـــــــــلام :خير الدين الزركلى ، بيروت ، ١٩٧٧ .

٨ — الدرر الكامنـــــــة :ابن حجر ، بيروت ، ١٩٥١ .

٩ — الغـــــــــدير :عبد المحسن الأمين ، بيروت ، ١٩٥٠ .

١٠ — شـــعراء الحـــلة : المطبعة الحيدرية بالنجف ، بغداد ، ١٩٦٣ .

١١ — شـعر صفى الدين الحلى :علوش ، مطبعة المعارف ، بغـداد .

١٢ — نوابع الفكر العربى (صفى الدين الحـــــــلى) :محمود رزق سـليم ، دار المعـارف بمصر ، ١٩٦٠ .

١٣ — النجـــوم الزاهـــرة : ابن حجر العسقلانى،بيروت،١٩٧٠ .

١٤ — خـــزانة الأدب :ابن حجة الحموى ، مصر ، هيئة الكتـاب ، ١٩٧٧ .

١٥ — مــع المتنــبى :طـه حسين ، دار المعارف بمصر .

١٦ — ديــوان المتنبى :دار القلم ، بيروت ، ط ثانية .

١٧ — اعيــان الشــيعة :السيد محسن الأمين ، بـيروت .

١٨ — النتــائج الالهيــة :صفى الدين الحلى ، بيروت .

١٩ — البديعيات فى الأدب العربى :على أبو زيد ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٣ .

٢٠ — المدائــح النبويــة :زكى مبــارك ، بيروت .

٢١ — مطالعات فى الشعر المملوكى شيخ أمين ، مطـابع الرياض .

٢٢ — ديــوان أبو نــواس :المطبعة العمومية ، بغداد ، ١٩٥٩ .

٢٣ — الوســاطة بــين المتنبى وخصــومه :تحقيق محمـد أبو الفضل ابراهيم ، دار الكتب ، ١٩٥٩ .

٢٤ — النــواجى :(حلبة الكميت) ، مخطوطة رقم ٧١٠٠ بدار الكتب المصرية .

٢٥ — ابن تغــرى بــردى :(المنهل الصافى) ، مخطوط بدار الكتب رقم ١١١٣ .

٢٦ — ديــوان الشــاب الظريف :المطبعة الأهلية ، بيروت ، ١٩٧١ .

٢٧ — العمــدة :لابن رشــيق ، بيروت : ١٩٦١ .

٢٨ — الحيــوان :للجاحظ ، مصطفى الحلبى ، بمصر .

٢٩ ـــ الوصف : سلسلة فنون :
الأدب العـــــــــربى :سامى الدهان ، دار المعارف بمصر •

٣٠ ـــ دائرة المعارف الاسلامية :بـــيروت ، ١٩٦٧ •

٣١ ـــ تاريخ آداب اللغة العربيـــة : الرافعى ، بيروت ، ١٩٦٥ •

٣٢ ـــ شرح مقصـــورة ابن دريد :الهنـــد ، ١٣٤٤هـ •

٣٣ ـــ الـــدر الثمين فى محـــاسن
التضـــــــــمين :مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٣ ، بلاغة تيمور •

٣٤ ـــ لســـــان العـــــرب :دار المعـــارف بمصر ، ١٩٧٧ •

٣٥ ـــ مقدمـــة ابن خـــلدون :المطبعـــة المصرية ، ١٩٦٧ •

٣٦ ـــ الأدب فى الدول المتتابعـــة :للدكتور عمر موسى ، دمشق ، المكتب العبـــاسى •

٣٧ ـــ الخـــــــــــريدة : العماد الكاتب ، بيروت ، ١٩٦٥ •

المحتـــــوى

رقم الايداع ١٩٨٩/٤٢٤٢

المطبعة التجارية الحديثة
٢٢ شارع ادريس راغب — الظاهر
تليفون ٩٠٣٣٦٤ — القاهرة